منشورات الاختلاف
Editions El-Ikhtilef
منشورات ضفاف
DIFAF PUBLISHING

لينا هويان الحسن

نازك خانم

رواية

مكتبة نوميديا

نازك خانم

لينا هويان الحسن

نازك خانم

رواية

منشورات الاختلاف
Editions EHkhtilef

منشورات ضفاف
DIFAFPUBLISHING

بسم الله الرحمن الرحيم

الطبعة الأولى
1435 هـ - 2014 م

ردمك 978-614-01-1070-7

جميع الحقوق محفوظة

منشورات ضفاف
DIFAFPUBLISHING
editions.difaf@gmail.com
هاتف الرياض 0096650933772
هاتف بيروت 009613223227

منشورات الاختلاف
Editions El-Ikhtilef
149 شارع حسيبة بن بوعلي
الجزائر العاصمة - الجزائر
هاتف/ فاكس: 676179 21 213+
e-mail: editions.elikhtilef@gmail.com

يمنع نسخ أو استعمال أي جزء من هذا الكتاب بأية وسيلة تصويرية أو الكترونية أو ميكانيكية بما فيه التسجيل الفوتوغرافي والتسجيل على أشرطة أو أقراص مقروءة أو أية وسيلة نشر أخرى بما فيها حفظ المعلومات، واسترجاعها من دون إذن خطي من الناشر.

إن الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبر بالضرورة عن رأي الناشرين

اهداء

إلى صديقتي هند بوظو

لا بـد أن هنالـك... بين الدمشـقيين من يتذكر، أو سمع بنازك خانم أو كما سماها الفرنسيون، «نازيـك هانـوم» الجميلـة التي جلسـت عارية أمام بيكاسـو في مرسـمه في شـارع دو غراند أوغسـطين بباريـس، وكانت ضمـن العارضات العشـر الأوائل الذين ألبسـهن إيف سـان لوران بدلـة السـموكينغ لأول مـرة بالتاريـخ... وأول امـرأة ارتـدت البكيني فـي مسـابح دمشـق... وقادت سيارتها بلباس رياضة التنس... وكانت لها هذه الحكاية...

(... لحياةِ راعٍ بمثل هذا الجمال، لا بد من ذئاب)

ريلكه

«البعض يجنّ من السعادة، والبعض الآخر يجنّ من التعاسة، والبعض يجنّ من الجمال.. انتبهي من جمالك يا نازيك هانوم...».

حتى جاءت اللحظة الأخيرة فهمت نازك سرّ تلك العبارة التي همس لها بها يومًا مجيب شان. لكن الأوان كان قد فات للفهم، كان الأوان للموت.

ينبغي لظلّها أن ينداح وراء جمالها الفاني، كل البشر فانون لكن الجمال سريع كغزالة وهو يجتاز العتبات القليلة نحو الزوال... ما أجملها «نازك» خانم!

تمرّ نازك الجميلة والنساء يتهامسن «ستشيخ»... لا أمل بقتل جمالها إلا بالتمني.

عادت إلى دمشق وقد بلغت التاسعة والثلاثين من عمرها.

نساء دمشق لم يتركن إشاعة إلا واخترعنها، وركّبن لها الأجنحة وطيّرنها في سماء المدينة وذلك زاد من بريق نازك في عيون الرجال، فالنساء دائما يكررن الخطأ ذاته. بسبب الغيرة، يعمدن إلى تشويه سمعة امرأة جميلة، فيحدث العكس وتزيد الهالة حولها...

إنها بالفعل «نازك» مضيئة، لامعة، اسم على مسمى، شهاب نزل من السماء، ووصلها بسلام، لم يحترق كبقية الشهب لهذا من حقه البقاء، وإشعال نار الغيرة، والفتنة والحب.

نازك لم تكترث لشيء مما يقال حولها، فهي تعتنق حكمتها الخاصة جدًّا، وقليلًا ما نعثر، أو نسمع بمن يمكن أن يفكر بتلك

الطريقة التي تتلخص بقول نازك: «أهم ما يمكننا أن نفعله في هذه الحياة إشعال أقصى ما يمكننا من حرائق الحسد والغيرة والنقمة». وكانت تردد وهي ترتدي البيكيني في مسبح بردى بدمشق: «لا أنام براحة إذا مرّ يوم دون أن أسبب ألمًا لأحد».

هل حقًّا أن نازك خانم جلست كموديل عارية أمام بيكاسو؟ من هو بيكاسو؟ الرجال المثقفون قالوا إنه فنان إسباني يرسم النساء بالمكعبات.

شبلي بيك الذي بدا أنه يعرف شيئًا عن بيكاسو، وحده كذّب الإشاعة وقال جازمًا:

- لا، لا يمكن أن يرسم بيكاسو وجه نازك، لأن بيكاسو يحب وجوه النساء الحزينات، ولا يمكن أن يرسم وجهًا فرحًا وواثقًا مثل وجه نازك المشتعل. لكن نجوان بيك، خالفه بقوله:

- "ماذا عن جسدها؟ إنه فرصة ذهبية ليرسم بيكاسو مكعبات ممتلئة وشهية".

شبلي بيك يضحك، وهل يمكن المكعب أن يكون شهيًّا؟ إذا كان جزءًا من هندسة نازك الجميلة، فلا بد أنه سيكون مسكرًا ومدوخًا، سيكون أكثر من شهيّ.

كلما حضرت نازك خانم واحدة من حفلات الطبقة الأرستقراطية في دمشق، خمنت أن غالبية الحديث ستدور حولها.

إذا كانت الدعوة في إحدى فيلات بلودان، فإن نازك ستقود سيارتها الفورد السوداء المكشوفة، وتركن سيارتها عقب فرامات متتالية، وتنزل منها وهي توظب تنورتها القصيرة، وتنتعل حذاء

بكعب عالٍ قرب السيارة. ولأن الجميع يعرف عادتها تلك ، سيكون كل الرجال على الشرفة بانتظار وصول نازك المدوي، فليس كل البشر يبلغون مكانًا ما بالطريقة ذاتها، ونازك لها طريقتها «الفضائحية أو المسعورة» كما كانت كل النساء على تسميتها.

نازك ستصل وستنزل من السيارة وهي حافية، سترمي حذاءها أمامها... وتدخله برجليها على مرأى الكل. وطبعًا، ستنحني وسيبرز صدرها وتتسع عيون الرجال، وستظل صورة ساقيها اللاهيتين في ذهن كل الساهرين.

كانت ملفتة مثل فضيحة صافية تمشي على قدمين... نازك الجريئة التي ترتدي المينى جوب، وتشرب الويسكي دون أن تبدو عليها علامات السكر، كانت تعرف أنها كائن جميل جدًّا غير مرغوب بوجوده. طبعًا، من قِبَل النساء.

عندما عادت الى دمشق، كانت قد صبغت شعرها حديثًا بالأشقر، وكشفت عن مفاتن جسد مشدود العضلات ملوح قليلًا بالشمس، غريماتها بررن سرّ محافظتها على رشاقتها أنها لم تنجب أولادًا... مهما تكلمن عنها كانت نازك تعود لأول مرة إلى دمشق عقب عشرين عامًّا، تسبقها إشاعات شتى ومذهلة عنها.

كان البعض يمرر قصاصات من الصحف الفرنسية تظهر بها فتاة شابة تشبهها كثيرًا تعرض أزياء مختلفة، في بعضها ترتدي الفرو، وفي البعض الآخر ترتدي لباس البحر.

وهنالك صور تبدو فيها شبه عارية تحمل فيها حقيبة من جلد التمساح...

مع ازدياد الإشاعات، زاد سحرها بنظر الرجال. وأصبحت شبيهة بريجيت باردو القادمة من باريس. وكلما مرت، تهامس الرجال حولها بخفوت «وخلق الله المرأة».

نازك كانت قد حضرت الفيلم الذي حمل هذا العنوان «وخلق الله المرأة » مع حبيبها وزميلها في السوربون «مارك».

الفرق بينها وبين بريجيت باردو أنها لم تتبختر حافية القدمين على شاطئ البحر أمام الدمشقيين.

لكن ذلك لم يكن ضروريًا فالدقيقة أو الدقيقتن اللتان تقضيهما حافية عند باب سيارتها كافيتان، فالرجال مفتونون بها. فقط، كان عليها أن تختار أي رجل يمكن أن يستهوي ذائقتها، يمكنها أن تختار عازبًا أو متزوجًا أو مطلقًا أو أرملًا، كل الرجال طوع بنانها.

نازك كانت تردد بجرأة في المجتمع الدمشقي، أن امرأة القرن العشرين، كالعبقرية: أي نتيجة حاسمة نهائية لجهد تمت مراكمته خلال قرون طويلة.

بيكاسو، سألها يومها عن عشتار، من هي؟ إنه يعرف فينوس وأفروديت، فمن هي عشتار؟ نازك شرحت له وهي معتزة بكامل عريها، وقد جعلها تجلس لتشبه امرأة من الميثولوجيا الإغريقية اسمها ليدا، شرحت له أن عشتار هي جدة فينوس وأفروديت، إنها ربّة الجمال في الشرق.

وبعدها سألته عن ليدا، شرح لها أنها امرأة اعجبت كبير آلهة الأولمب زوس، وكانت زوجة ملك، فلم يكن بوسعه الاقتراب منها إلا متنكرًا فجاءها بهيئة بجعة هاربة من صقر وفتحت ليدا ذراعيها للبجعة الخائفة وحين تأكد زوس أنه بين ذراعيها، ومتحكم بها، برز بهيئته الحقيقية وضاجع ليدا المذهولة وأنجبت منه أربعة توائم. بينهم فتاة نادرة الحسن لم يعرف التاريخ أجمل منها اسمها هيلين، وحين كبرت تسببت بحرب بين الإغريق ومملكة اسمها طروادة.

- كيف؟ سألت نازك.

- لأنها خانت زوجها الذي كان أحد ملوك الإغريق، وفرّت مع ابن ملك طروادة. وبسببها بادت تلك المملكة.

نازك تسال بيكاسو:

- واووووا! كم أتمنى أن أتسبب بهلاك مملكة! وماذا حدث لهيلين الجميلة؟

- هههه، عادت على متن إحدى سفن الإغريق معززة، مكرمة.

- ألم ينتقم منها زوجها؟

- الجميلات لا ينتقم منهن أحد يا حلوتي... هيلين عقب عشر سنوات من الفراق عندما تواجهت مع زوجها وبيده الخنجر الذي ادخره كل تلك السنوات ليقتلها فيه... فكّت إزارها وكشفت عن ثديين مشرئبين... وسامحها الملك المغدور.

- أنتم الرجال تعشقون المرأة الخؤون؟

- لم أعرف امرأة مخلصة إلا وكانت مملة.

- حتى لو كانت جميلة؟ امممممم... الجمال أمر يتناقض مع الوفاء؟!

- امممممم، يتمتم الرسام المنهمك بالرسم، وهو ينقل نظره بين المرأة العارية أمامه وقماشة اللوحة.

نازك تقول:

- إذًا، لولا الجميلات لكان التاريخ سمجًا وسخيفًا وذكوريًّا؟!

يرفع نظرره نحوها وكأنه يراها للمرة الأولى مع تحديقة مركزة وحارقة يقول لها بحسم:

- المرأة الجميلة تحرك الارتياب الدفين، في صميم قلوب كل الرجال، فاحذري أن تدفعي رجلًا تحبينه للشك بك.

- وإذا لم أحببه؟!

- هههه، إذًا افعلي فيه ماشئتِ.

(حتى الطائر الأصلع يريد أن يحلق بعيدًا،
فما بالك ببجعة ذات جناحين طويلين)

ناسك صيني

مجيب شان كان يقول دائمًا:

- جاء الزمن الذي تنكس فيه النساء أنوف كل الطرزانات... فالتاريخ دائم الانخداع بالمرأة التي خُلقت لتخدع الفردوس والرجال.

عندما التقت نازك بمجيب شان، كانت تمشي كموديل في أروقة إيف سان لوران، تحديدًا في ذلك العرض الذي استوحاه من ألوان مراكش.

بسبب قامتها الهيفاء وجسدها الممتلئ برشاقة، وشعرها البني الطويل كانت نجمة العرض إلى جانب تلك الأمازيغية الفارعة الطول "وسيلة بوسيس" سمراء ساحرة بشعر أسود أجعد وعينين سوداوين وملامح لبؤة مستفزة...

وسيلة بوسيس، كانت تعيش كخليلة للثري الإيراني المقيم في باريس منذ صباه، مجيب شان الأسمر المربوع الذي عرف عنه ولعه بالنساء ذوات القامة الهيفاء. وبذريعة ممارسة هواية الرسم كان يستدرج أشهر الجميلات في باريس إلى مرسمه.

وقتها سرت عنه إشاعة حديثة تقول إنه قام بدعوة عدد من الأثرياء إلى قصره الكائن في سان دونيس الضاحية التي فيها مقبرة ملوك فرنسا القدماء... وهناك أطلق عددًا من العارضات الفاتنات في غابة القصر عاريات تمامًا، وترك للمدعوين أمر إمساكهن. لكن خطأً غير متعمد تربص بالجميلات العاريات، فقد سها رجاله عن ربط كلاب الحراسة، وكان قد فات الأوان عندما علا نباح الكلاب في أثر المدعويين والعارضات.

وتولت الصحف الصفراء أمر نشر الحادثة، كل صحيفة على طريقتها.

اتُهم مجيب شان بأنه لم يسه عن الكلاب، إنما فعل ذلك عمدًا. باختصار كانت الصحف دائمًا تذكر اسمه كمقترف نزوات.

مجيب شان رمم أضرار تلك الحفلة مستثمرًا عدد الأصفار الكثيرة في حسابه المصرفي، وأنهى حكاية حفلته الغريبة بإرسال الهدايا الثمينة إلى الضيوف والعارضات وهم في بيوتهم يتعافون من آثار مهاجمة الكلاب.

وسيلة بوسيس كانت حاضرة، ولأنها من رواد القصر الدائمين لم تهاجمها الكلاب، انخرطت بإنقاذ زميلاتها من شراسة كلاب الحراسة المدربة جيدًا.

مجيب شان كان، إضافة إلى كونه من أثرياء البترول الشهيرين، معروف عنه ولعه بالكروم لإنتاج النبيذ الذي يحبه كثيرًا، يحب كل ما تخبئه الأرض، ويغامر بدخول مشاريع كبيرة بحثًا عن البترول والذهب والماس. ولم يكن يحزن عندما يخسر إحدى تلك المغامرات، ويظل يردد أنه ليس من الأثرياء، إنما هو قروي يحب أن يحول أمواله إلى شيء ملموس كالأرض والحجر وهكذا امتلك الكثير من القصور التي تعتق في أقبيتها كروم الريف الفرنسي.

تعرّف إلى "وسيلة بوسيس" وهي تعمل في أحد الكروم الجزائرية، فتاة يتيمة فارعة الطول، بسبب لسانها السليط لم تتزوج، رغم جمالها الواضح لكنها تجاوزت عمر العشرين، وهذا يعتبر بين قومها عمرًا متأخر للزواج.

مجيب شان عرض عليها مرافقته، بعدما أفرغت عليه الماء البارد وهي تحمله لسقي زهور القصر، قال لها كلمة بذيئة بالفرنسية، فهمتها وسيلة، وتقدمت منه وتركته مرتعشًا من برودة الماء، مرافقوه الثرثارون رووا تلك الحكاية للصحف الفرنسية. وبالفعل، تم تداول تلك الحكاية عن مجيب شان الذي لم يكن يكترث إطلاقًا لما قد يقال عنه... لكن النساء بغالبيتهن كن يتهامسن حول ولعه بالنساء الشرسات.

خلال أشهر قليلة كانت وسيلة بوسيس تتبختر بثقة غريبة في صالات العروض، بعد أن دفعها مجيب شان لدور العرض مستغلًا صداقاته من أصحاب دور الأزياء.

بسبب ولعه الكبير والشهير بوسيلة، لم تنخرط نساء كثيرات في منافستها تحديدًا بعد أن أثبت لها حبه الكبير بشراء فيلا في ضواحي باريس، سمّتها وسيلة «فيلا جيجل» وجيجل، مكان مسقط رأسها في الجبال الجزائرية.

أيضًا، كان مولعًا بشراء الدراجات النارية وكثيرًا ما كان يهدي أصدقاءه دراجة لم يعد يستعملها. وسيلة بعد خمس سنوات من رفقتها لمجيب شان منحها شرف إهداء الدراجات النارية لمن تشاء من أصدقائها.

* * *

سألته نازك: "ووسيلة"؟!

قال لها: "وسيلة جميلة إلى حد السحر، وأنتِ فاتنة الى حدّ الألوهية".

نازك التي هجرت السوربون لتعيش على هواها مرة كمصورة فوتوغرافية، ومرة كممثلة مسرحية فاشلة، استقرت أخيرًا في مجال عروض الأزياء... كانت تعرف جيدًا بثقافة الوسط الفني سألته بثقة مطلقة:

- من تقصد إلهة الجمال فينوس؟

قبل أن تكمل، قال لها مجيب شان الذي يتمتع بلباقة فطرية:

- تشبهين إحدى ربات القدر.

فاجأتها الإجابة. كانت قد ظنت بنفسها الثقافة، وهل لربات القدر إلهة؟!

كانت تجلس أمامه على حرير أحمر بذريعة أن ذلك يناسب القدر أكثر كما يرى مجيب شان، وهو يقوم بدور الرسام ليرسم لوحة لا قيمة لها كالعادة...

سألته: ومن قال إن القدر يفضل اللون الأحمر؟

- القدر مرتبط بالدم والدم لونه كلون القدر... قال ذلك دون تردد.

- لماذا جعلوا للقدر ثلاث ربات ألا تكفي واحدة؟

مجيب شان يقول:

- القدر يشبه النساء. يمكن كل رجال الأرض أن يشبهوا رجلًا واحدًا، لكن النساء لا يشبهن إلا أنفسهن. والقدر كذلك. ربات القدر كن ثلاث أخوات، إحداهن تنسج الغزل، والثانية تطويه على ذراعها، والثالثة تقصّ الخيط باللحظة الموعودة... كل شيء موعود يا نازك، المرأة مهما بدت بسيطة تظل مقارنة بالرجل

ملتبسة ولا تُسبر أغوارها. لهذا نحبهن.

- وهل ربات القدر جميلات؟

- وهل سمعت برب أو إله ليس جميلًا؟ لكن، لهن جمالهن الخاص والغامض والبعيد والصعب

- كيف بعيد؟

- ثمة جميلات نرى جمالهن مباشرة، تكفي لفتة لتحديد مستوى حسنهن، لكن هنالك جميلات لا بد من تكبد عناء قطع مسافة ما، حتى يمنحن جمالهن للبصر.

- وكيف صعب؟! أهناك جمال سهل وآخر صعب؟!

- بلى، بالنسبة لرجل مثلي هكذا يصنف الجمال إما سهل وإما صعب...

- كيف؟!

- السهل يتمثل بوجه لايخفي جماله كالعينين الواسعتين والوجه المتناسق، بينما الصعب يكون متربصًا بوجه ليس بالضرورة أن يكون متناسق الأبعاد قد يحوي بعض الخلل لكنه جذاب إلى حد غير مألوف.

- لهذا، أعجبت ذات يوم بالأمازيغية وسيلة، إنه ذلك الخلل الذي تراه كل باريس إلا أنت، ألا ترى أن عينيها بعيدتان عن بعضهما؟ !

انخرط مجيب شان لأول مرة بالضحك وهو يقول:

- يا لغيرة النساء! بيكاسو نفسه أقر بجمالها الغريب... ثم يستدرك ويقول: «أنت أجمل يا نازيك».

عندما وجدت نفسها محاصرة بالإحراج، قالت له دون اكتراث:

- فلنعد إلى القدر، أحقاً أنا أشبه القدر؟!

- لعلك تشبهين تلك الربة الوسطى التي تتحكم بالقدر، تلفه على ذراعها... يقول ذلك ويقترب منها ويمرر إبهامه على بروفايل وجهها ويهمس لها:

- أتعرفين؟ القَدَر فنّ.

- فنّ؟!

- وإلا لما مثله الإغريق بنساء جميلات يغزلن دون توقف. ذلك النسيج ألا يقتضي فَنًّا في الحبكة

أليست حياتنا هكذا، مغزل يدور ويدور ويحرف دروبنا وطرقنا؟

- القدر لا يحرف مساراتنا إنما يصححها؟

ضحك مجيب شان:

- رائع، أحب أن تخالفيني الرأي ألم أقل إنك صعبة؟!

- وتحب من تغرقك بالماء البارد؟!

- هههههه، أخبروك تلك القصة الجميلة؟

- وماذا أيضاً؟ كيف تراني غير ربّة قدَر؟

- صارمة كتومة... متعددة الوجوه... آه... يا معشر النساء ستُنمّى براثنكن أكثر فأكثر لن تبذلن جهدًا لإيهام الرجال برأي حسَنٍ بكن...

- إذًا، لا داعي لأن تنقبوا عن النساء في كتب التاريخ أو المتاحف، فينوس لم تعد مجرد تمثال مرمري قابع في اللوفر...

سنمشي في الشوارع كربّات قدر... بكعوب عالية... لن نتمشّى بغاية التنزه، أو التبختر وحسب... إنما سنسجل انتماءً حاسمًا إلى العصر.

- ألم أقل لك إنك صعبة؟ لست سهلة... يا نازيك من أين تأتين بهذا الكلام الجميل والخطير؟ هل حقًّا تجالسين ذلك الفيلسوف القبيح سارتر في مقهى فلور؟

- حدث ذلك مرات عدّة، إنه ثرثار كبير، خاصة في حضرة النساء الجميلات، لكن كل ما يقوله مؤثر ومهم.

- آها!

- آلهة الأولمب يعرفون أن الدقة أشد عند المرأة منها عند الرجل. مُنحن شرف الغزل والتحكم بمصائر البشر...

- لماذا تهربين؟ كفى حديثًا عن القدر، إنه موجود هنا أمامي عاريًا ولامعًا ومغريًا إلى حدّ الموت. هل حقًّا تجالسين ذلك المفكر القبيح أم إنك تختلقين ذلك بين زميلاتك للتبجح فقط؟!

- عندي صورة تجمعني به.

- سهل جدًّا التقاط الصور مع النتن سارتر بالنسبة لامرأة مثلك.

- كما تريد لا يهمني أن أثبت ذلك ربما أنا «قدَر» والقدر لا يغزل لمجرد التسلية، كلّ قدر يروم حكاية.

يغادر اللوحة ويقترب منها وفجأة يتوقف ليقول لها:

- أنا وإياك ننتمي إلى الغبار نفسه، قانون الطين الجاف حيث وداعته وقسوته متضمنتان داخل بعضهما البعض... مثلي ومثلك

لن نكون بالنسبة لباريس إلا غبارًا. نقيم معها علاقة ترحال.

يعود الى لوحته ويسألها مجددًا من وراء اللوحة:

- أحقًّا جلست كموديل في مرسم بيكاسو؟

- بلى.

- أم إنها واحدة من إشاعاتك وستقولين إن هنالك صورة تؤكد معرفتك به، لن أصدق إلا إذا كانت صورة لك عارية في مرسمه...

لم تجب، فقط طيف ابتسامة ماكرة...

- ألم يقل لك بعض عباراته الشهيرة بشأن النساء؟

- باريس كلها تحفظ قوله الشهير: «ليس من كلب صغير يشبه كلبًا صغيرًا آخر، وهذا ما ينطبق على النساء أيضًا».

يقاطعها كمن يعرف سلفًا ما ستقول:

- وكان مولعًا بقوله: «عندي نوعان فقط من النساء آلهة وماسحات أحذية». يتابع وهو يهز رأسه

- أتعرفين كان عليك أن تقابلي نيتشه...

- تظن أنني لا أوافقه الرأي بما قاله بالنساء؟!

- لم أقابل قط امرأة تعترف بإعجابها برأي نيتشه بالنساء!

- هذا الرجل لم يقل إلا الحقيقة بشأن المرأة.

- آه، ربما ثمة حقد خفي ينمو في داخلي تجاهك، وهذا أخشاه كثيرًا لأنه علامة حب، إذًا تعرفين رأي نيتشه؟ ويعجبك؟!

- فيلسوق يمتلك رأيًا صاعقًا بشأن النساء، وأنا لا أنكره كغيري من بنات جنسي...

تستقبل استغراب مجيب شان بعفوية وتكمل كلامها:

- أليس هو الذي يؤكد أن ما يبعث على احترام المرأة وفي الغالب على الخوف منها، هو طبعها، وهو «أشد لتصاقًا بالطبيعة» من طبع الرجل؟ يتكلم هذا الفيلسوف عن مرونة المرأة، السبْعية الماكرة الأصيلة، مخالبها الضارية تحت القفاز، سذاجتها في الأنانية، تملصها من التربية، وكل ما لرغباتها وفضائلها من واسع ومتفلّت لا يقبل الاحتواء. ألا يقول ذلك تمامًا؟ وهذا حقيقي مهما أنكرته النساء فهن كاذبات.

- أنت خطيرة، هل قلت رأيك أمام بوفوار، رفيقة فيلسوفك التتن؟

- بوفوار يا لها من منافقة! لو أن سارتر تزوجها لما أصبحت فيسلوفة كما تدعي إنها معقدة وتكره أنوثتها.

- واووو! هل عبرت عن رأيك هذا؟

- لم يسألني أحد عن رأيي... هل تعلم أني تركت دراسة القانون في السنة الرابعة؟ طبعًا، لا تعرف ولا أحد يعرف. ولا يهم...

* * *

(غالبًا، ما بحثت عن الحب تلمسًا...
مثل الذي فقد بصره)

ياروسلاف سيفيريت

أكثر ما تتذكره عن تلك الفترة في حياتها، أنها كانت مشغولة بتدليل نفسها، واهتمامها اليومي برونقها وحسنها.

كانت في فراشها الذي تشاركته لمدة عشر سنوات مع مجيب شان تشرب عصير البرتقال، وتقرأ في مجلتها المفضلة «ماري كلير» آخر استطلاع أجرته صحافية صديقة لها سألت فيه آراء نساء مهمات في المجتمع الباريسي حول النصائح التي يمكن أن يقلنها لبنات جنسهن:

(كوكو شانيل قالت: «ابدإي دائمًا من جديد»، ولانكوم: «يجب أن لا تغطي رائحة العطر على وجود المرأة». وإليزابيت تايلور قالت: «المرأة الجميلة هي التي تهتم بزينتها في كل وقت حتى ولو كانت لا تنتظر أن يراها أحد. وهلينا روبنشتاين أكدت: «أن استمرار الجمال يحتاج إلى صبر طويل). كانت نازك تبدأ نهارها مع بضع رشات من عطر.

أي "سمّ" Poison عطرها الجديد، الذي احتفت به باريس كعطر جديد ويحمل اسمًا غير تقليدي أبدًا.

أنف زميلها وصديقها وارن غوتييه، كان من الأنوف التي اتفقت على تشكيلة من الروائح لتحمل ذلك الاسم. مجيب شان قال: "يكفي أن يحمل عطر ما اسمًا شيطانيًّا كهذا حتى يجذب النساء، لأنه يحرك نوازع الشر الأصيلة لديهن، لم تنسَ قط نظرته الخبيثة والتعبير المرح الهازئ على شفتيه وهو يقول لها ذلك.

قبل معرفتها بوارن لم تكن تميز الروائح كما أضحت في ما بعد. أول قارورة عطر تلقتها في بداية تفتح أنوثتها، كانت عطرًا

من بورجوا «سوار دو باريس» (عطر مساء باريس). وقتها لم تكن تعرف شيئًا عن تلك المدينة إلا ما رواه لها من قدّم لها العطر... وعندما غادرت دمشق مدينة آلامها متجهة إلى مدينة أحلامها شرح لها وارن أن هذا العطر بالذات كان يحتوي تشكيلة روائح من: «قرنفل، ورد، بنفسج، كبش قرنفل، نجيل الهند، وصندل». وقتها أقنعها وارن بأن ذلك العطر أضحى موضة قديمة، ويليق بطالبات القانون في السوربون لكن، لا ينسجم مع أنثى تنوي استثمار جمالها... وعليها استبداله.

لمدة عامين في عملها بعروض الأزياء تنقلت بين روائح عدة. أحيانًا تميل لشراء قارورة باهظة الثمن تحمل علامة ماركة شهيرة دون أن تحب الرائحة التي تحملها.

عندما سألت وارن كيف يشكّل العطور؟ أجابها دون تردد: «وفقًا لذكرياتي عن الطبيعة». لا بد أن وارن امتلك حاسة شم مميزة، وأيضًا ذاكرة متميزة فهو ابن مدينة غراس في الجنوب الفرنسي، في شوارعها تتسلق عرائش الياسمين على أعمدة الكهرباء، وتنتشر أحواض الورد على أرصفتها وفي ساحاتها العامة، وتنبسط حقول بنفسجية مترامية الأطراف من الخزامى تحيط بها.

ذات مرة عندما هجرها مارك وانهمك اصدقاؤها بمواساتها كانت كل محاولاتهم عبثًا، إلى أن قال لها وارن ما لم تنسه قط: لكل شهر وفصل أزهاره، الجميع يظن أن الشتاء خاليًا من الحياة بينما شهره القاسي كانون الثاني له أزهاره. «الخزامى» تزهر في هذا الشهر، وتُقطف حتى بداية آذار... كان وارن يكرر عبارة لا تتذكر أي المشاهير قالها: «منحنا الذاكرة لنشم رائحة الورد في كانون».

منـذ ذلـك الوقت وهـي تتذكر عبارته تلك في أحلك ظروفها النفسية...

لصباحاتهـا تختـار الروائـح ذات التركيـب النضـر التـي تذكر بأعشاب الغابات والجداول النائية...

عندما سألته كيف تختار عطرها قال لها: «شمة واحدة تكفي لتذكرك بشيء ما... وتبعًا لذلك الشيء قرري.

ومن يومها اعتادت تشغيل مخيلتها وحدسها لتختار عطرها.

مجيب شان الذي يملك إحدى المعاطر كان يقول إن الأثرياء هم الزبائن الحذرين، يبحثون عن الشيء الذي يبعدهم عن العموم. حين استثمر بعض أمواله في العطر، كان مدفوعًا بهوسه بالروائح.

كان حادًّا في دفاعه عن تأمين الحماية لمبتكر العطر والماركة التي تستثمره معًا، فيرتبط مصير الجهتين بالعطر نفسه، وهذا برأيه، يخفف من خطر العطور المقلدة. كان يبحث عن المبتكرين الجدد حتى لا يسـود الفراغ، مكان المبتكرين الكبار... هكذا، عثر وارن على مكانه كأحد المسؤولين الشميين في معطرة مجيب شان.

* * *

«أريد اسـمًا يمسـكني لا يسـمح لي بالانزلاق أو الانحشـار». هكذا، صاحت نازك في وجه أول رجل بحياتها وهو يدلعها «نانا» ماهذه السخافة؟! أنتم الرجال تخترعون لنا اسم الدلع لتخففوا من وهج الأحرف وقدراتها... تستكثرون علينا حروف أسمائنا... «نانا « يمكنك أن تطلقه على قطتك يا بيك. لا يمكن أن أسمح لأحد أن يناديني باسم يمحوه الآخرون بسهولة، اسم خافت مثل بصيص

قنديل خفي. كانت تريد لمعانًا قويًّا، انبهارًا، غزوًا ضوئيًّا.

ذلك البيك الأول الذي كان في حياتها وهي في السابعة عشرة من عمرها. كان المحامي القادم حديثًا من باريس وهو الذي زرع في بالها فكرة الذهاب إلى باريس، دون أن يقصد ذلك مطلقًا. لمدة سنة وهو يحدثها في كل ليلة عن مقهى فلور، وبار الكوبول... وكل تلك المقاهي التي تطل على سان جيرمان... والنساء الرشيقات اللواتي يمشين في عروض الأزياء، ومنه لأول مرة سمعت عن بيكاسو، الفنان الإسباني الذي تجلس أمامه النساء عاريات ليرسمهن بهيئة مكعبات، ومنه سمعت عن دورا مار، ملهمته، وقامت بقص كل صورها من المجلات التي تحتوي صورًا للوحاته وكانت مغرمة بملامح دورا مار الباكية المتفجرة، ذلك المحامي أذهلته ذات مرة نازك التي لم تكن قد تجاوزت السابعة عشرة من عمرها وهي تقول بينما تتمعن في ملامح لوحة رسمها بيكاسو لدورا مار: "إنها تشبه كل النساء إنها حقيقتنا جميعنا بنات حواء".

المحامي كان مع كل كتاب جديد ينصحها به يفتّح عينيها على شيء جديد. كان مغرمًا بالفن، ولم تجد حرجًا في التعري أمامه ليرسمها. قدّس جمالها، كان يقبلها من رأسها حتى أخمص قدميها وهو يهمس: ما ألذّك! ما أجملك! لكنه عندما طلب منها الزواج، رفضت. وحين سألها تبرير رفضها بعد أن وعدته أن تكون زوجة له. قالت له: "وقتها لم أكن قد اكتشفت أنني جميلة إلى هذا الحد! أنا أجمل من أتزوجك!

نازك ولدت في قصر فاخر من الرخام والمرمر على سفح جبل قاسيون، له إطلالة ساحرة على دمشق.

كانت الأخت الكبرى لأخوات لا يطقن وجودها في حياتهن.

ماتت أمها أثناء ولادتها، وتزوج أبوها بأخرى. وتلك أنجبت خمس بنات ولم تنجب الوريث الذكر الذي تنتظره كل عائلة شرقية.

لا يمكن اعتبار شقيقاتها قبيحات أبدًا، إلا إذا وقفت نازك بينهن. عندما وصلت باريس، كانت نازك الفتاة الوحيدة في السوربون التي لا تمتلك، في السكن الجامعي، صورة عائلية. فقط صورة واحدة تجمعها مع أبيها.

زوجة الأب وصفت ابنة زوجها، نازك الجميلة، بالوقحة والفاجرة. لكن ذلك لم يبعد العرسان عنها ولا يمرّ أسبوع، إلا وزوجة الأب مضطرة لتحضير استقبال لخاطب جديد.

نازك كانت قد وضعت في بالها فكرة مغادرة دمشق إلى أي مكان في العالم لا توجد فيه زوجة أبيها. لهذا، لم تكن تكترث للخطّاب. وفي كل مرة تجد عذرًا لرفض خاطب جديد يطرق بابها. وفي الوقت نفسه تحاول إقناع أبيها بفكرة كان يرفضها تمامًا، ولم يوافق قط على فكرة ذهاب ابنته لدراسة القانون في فرنسا عند خالها الذي يعيش هناك مع زوجته الفرنسية.

زوجة الأب أخيرًا سهلت مخطط الجميلة نازك، دون أن تدري أنها ستلعب دورًا حاسما بتحقيق أحلام الفتاة. وذلك عندما استأجرت رجلًا يقفز الى شرفتها ليلًا بحيث يراه الحارس وتضمن فضيحة لنازك. حدث بالفعل ما خططت له، زوجة الأب، وبكت نازك بكاءً مرًّا وهي تنكر أنها تستقبل رجلًا غريبًا في غرفتها ليلًا. بعد أن حبسها أبوها ليلتين متتاليتين وفكر مليًّا بحلّ جدي لابنته العنيدة، قرر إرسالها إلى فرنسا حيث يمكن أن تكمل دراستها.

لكنه لم يفطن أبدًا إلى أن ابنته تريد الذهاب إلى رسامين يرسمون صورًا سرية بالفحم. وفتيات عاريات يزين كازينوات تصرف أموالًا طائلة على الديكورات، أما الملابس فلا تكلف شيئًا. نازك كانت تحمل «سوفنير» لفتاة عارية من البلاستيك اللدن كانت تلك الفتيات يبعنها على أبواب الكازينوات كان قد جلبها له حبيبها المحامي، أيضًا تذاكر لدخول دور سينما تعرض الأفلام الإباحية المكشوفة، وكل روادها من أهل قرى فرنسا والعرب. كان المحامي قد التقط صورًا كثيرة في باريس في شارع فيفين حي الصحافة في باريس ونادي كارول في الشانزليزيه، وفي مقهى بيونت للوجبات السريعة في الحي اللاتيني، وقوس النصر في ميدان الإتوال... كل تلك الأماكن التقطت فيها صورًا وأرسلتها إلى أبيها الذي أعجبته صورة لها مع السناجب في غابة بولونيا قام بتأطيرها بالموزاييك وتعليقها في مكتبه.

* * *

نمرّ بلحظات حلوة أو قبيحة، لطيفة أو لئيمة عادية أو مبتكرة، يمكن أن نراها بومضة خاطفة... لولا بكرة الفيلم لما تمتعنا بشكل جديد من الاتصال مع الماضي غير المخيلة، بواسطة الصور نقلب صفحاتنا الفذة المدهشة التي أحرزناها. مع مرور الزمن نعاملها كتحف فنية بعاطفة قمعية وجائرة، وكل صورة مر عليها يوم واحد بمثابة حزن.

يظل القلب "الفلتر" الأخير لصور ذاكرتنا. هكذا، تعلمت نازك من الحياة: فما يقوله القلب صحيح بالمطلق. لأن الشجاعة

مسكنها القلب، وعندما نكون شجعانًا، فإن قلوبنا صادقة لا تقوى على الخداع.

نازك كثيرًا ما كانت تتصفح صورها القديمة وتشاهد نفسها وافقة بحضن الماضي وتعترف لنفسها: نعشق فنزهو بأنفسنا ونفقد أدنى شعور بالاعتدال، لطالما أضاعت بوصلتها كلما عشقت. بعض الصور تبدو كأمنية متقدة... جميل أن يسمح لنا اختراع مثل الكاميرا بنسخ لحظاتنا بدقة آلية، فنحصل على ما يشبه الاكتمال الذي نتعطش إليه فقط في الصور: مبتسمين أنيقين نرتدي ابتسامة محددة، تمامًا كما نرتدي ثيابًا بعينها، لأجل التقاط صورة. مع الوقت وبعد كل قصة حب مخيبة تصبح وجوهنا أقرب إلى الحقيقة. نواجه أنفسنا، الحب يزيد من عيار الشجاعة فنصفع أنفسنا بحقائق مرّة لكننا نتذكرها لنتفادى عيوب الحب القادم.

أمام ألبوماتنا نعترف بالشوق المسلّم به لأيامها الفائتة.

أينما حلّت كانت تعلق صورة لها ترتدي فيها بلوزة بلون أخضر، بعد سنين طويلة علقتها في غرفة نومها، التي جمعتها بكمال بيك لمدة لم تتجاوز السنة. كلما نظرت إليها وحدها تذكرت وعرفت قصة تلك البلوزة ومهما تباعد بها الزمن عن تلك اللحظة يأتها صوت مجيب شان الهامس، وهو يفك أزرار بلوزتها وهو يقول متأففًا: "اخترعت الأزرار والمشابك والبكل والأبازيم لتناور الرجل، وضعت مناعتها الموقتة بابًا في وجه اشتهاءاته، لتزيدها تأججًا، لتنساب صوبه ببطء مثل ريح تتلكأ عن عمد حتى يأزف وقت العاصفة".

نازك تعيد تبكيل أزرارها رغم ممانعة هادئة من يدي مجيب

شان الذي بدا أنه لم يفهم سرّ ذلك. لم ينتظر كثيرًا ليروي فضوله... نازك التي لا تخشى حكم أحد عليها قالت له بهدوء بالغ:

- لـم تقطـع علاقتـك بوسـيلة الأمازيغية... هـا؟! منذ ليلتين أهديتهـا خاتـم تزينـه زمـردة ومحـاط بالماس... لن أهددك بشـيء فأنا لا أخشى امرأة أخرى، يا مجيب شان... لكن المسألة متعلقة بكرامتي. وسيلة تعمدت التأكد من أن تصلني قصة الخاتم، والآن أزرار بلوزتي لن تتزحزح... إلا بأزرار من ذهب وجواهر تسـاوي أضعاف ثمن خاتم وسيلة... يا حبي.

- عاهرة تتصرفين تمامًا مثلهن، تضعين لنفسك ثمنًا!

- فكر كما تريد...

بـكل مـا أمكـن امرأة من عدم اكتراث قالت ذلك وهي تخرج من الغرفة، للحظة ظنّ أنها مغادرة لكنه سـمع صوتها من المطبخ تقول له: "خرجت من العرض وجئت مباشـرة إلى هنا، أنا جائعة وسآكل من وجبة السباغيتي التي طهوتها لعشائنا".

عندما اسـتفاق من ذهوله ولحق بها إلى المطبخ، وكانت قد أتـت علـى كامـل الوجبـة ولم تترك له شـيئًا، نظفـت فمها ونظفت أسنانها بصوت مسموع وخرجت مغادرة...

رجل مثل مجيب شـان يدرك أن الأرض تمارس نبلها عندما تصير موئلًا لشيء ساحر... تكوّن لمّا كانت الأرض ترسم المسودة الأولـى لخريطتهـا، وعبـر التنافـر والتعـارض وهنـاك فـي العمـق المشـطور المجرّح بخيال البشـر تكوّن شـيئًا فخمًا ونبيلًا في لحظة منتقـاة وفريـدة... تتكـون الأحجار الكريمـة، لتمتحن همم الرجال وهم يبذلون كل أحلامهم في سبيل اقتلاع تلك الحجارة من بطن

الأرض، وتجد سبيلها إلى النساء، وإلى نازك تحديدًا.

وسيلة هجمت على مرسم مجيب شان وهشمت لوحاته وعاثت به فسادًا، أتى ذلك بعد أن تباهت نازك أمام العارضات ببلوزة أزرارها من الذهب المنزل بالياقوت الأحمر.

مجيب كان يعلق قائلًا عن الحادثة بهدوء كبير: «لا بد من الصخور البرية القاسية، لا بد من الزلازل والتحولات، وتبدلات تمحو التضاريس وتولِّد جغرافيا جديدة، تبدّل الأرض وجهها وتفرّغ بطنها وتشقلب أحشاءها... ومن رغبةٍ بالإفناء والقتل... تبصق النار وتتناحر الصخور شظايا وتتفتت الجهات، وفي العمق تحقد الحجارة على بعضها وتتصادم وتنحر بعضها ويكون الموت، والهدوء، والحزن، ورغبة أصيلة بالالتحام بنقاء. ويعلن الوجود عن رغبته أن يكون و«ينوجد» بدون شوائب، تحركه رغبة أن يوجد باعتزاز واعتداد... بلحظة متحجرة ومندهشة تتكون المجوهرات، لتدخل في سِيَر النساء وهن يستعبدن الرجال في سبيل اقتحام قلوبهن.

لا يمكن لشيء ثمين تكوَّن على مهله، دون أن يحسب الساعات الهاربة والسنين المندثرة، إلا أن يكون أنيقًا راقيًا...

* * *

بضربة واحدة... الحب يبدأ من العينين ثم يحفر دربه، مهما ثرثر أهالي دمشق عقب تلك الحادثة، ومهما تكهنوا، وخمنوا، فمن الصعب أن يحزر أحد بالضبط ما حدث.

الجميع كانوا متفقين على أشياء بعينها: نازك جميلة جدًّا وذكية

ومثقفة وامرأة مجربة. وكمال بيك يمكن أي امرأة أن تقع في هواه، عيبه الوحيد بالنسبة لنازك، كان تديّنه الواضح، فلا يشارك أصدقاءه شرب الخمرة، ولا يذهب إلى الملاهي، ويتكلم كثيرًا في السياسة ويشتم اليساريين.

يومها عندما قطعت نازك الطريق من دمشق إلى مصايف بلودان، ثمة محطة استوقفتها قبيل وصول فيلا عمتها شاهي خانم، حيث كانت تقام وليمة كبيرة وستغني الفنانة «طروب».

نازك يومها، مرّت على النبعة الشهيرة بمائها العذب التي تتوقف عندها عادة السيارات وتملأ الغالونات بمياه ثلوج الشتاء. المكان، يومها كالعادة كان مزدحمًا، نازك لم تتأخر قط بسبب تلك الزحمة، حالما تنزل من سيارتها وبالكاد تحمل الغالون، سيهرع الرجال الحاضرون ويحملون الغالون ويملأونه لها، ويضعونه في صندوق سيارتها وتكمل طريقها. تلك المرة حدث كالمعتاد لكن غالونها لم يمتلئ بالماء بالسهولة المعتادة.

ثمة شاب لم يبدُ أنه تجاوز بداية الثلاثينات من عمره، أبيض البشرة طويل القامة، يرتدي بزة رسمية كان قد وضع غالونه هناك للتو، ورفض أن يزاح لصالح غالون الست نازك. وقف بملامح باردة ينتظر امتلاء غالونه. نازك عادت إلى سيارتها بعصبية مخلّفة غالونها وراءها ووصلت الفيلا تقود بعصبية وسرعة.

الجميع كان ينتظر وصولها، نزلت واطفأت سيجارتها بعصبية وسرعة، وارتدت حذاءها على عجل دون أن تكترث بإغواء العيون الناظرة إليها.

دخلت عند عمتها وطلبت من إحدى الخادمات تحضير

القهـوة، لأنهـا تعانـي مـن صداع شـديد. أخذت قهوتهـا وانفردت على شـرفة خلفية في الفيلا تنفث الدخان. وفكرت بأن ما حدث لا يستحق كل ذلك الغضب.

التفتـت فجـأة على أثر حركة خلفها ظنت أنها الخادمة تدخل لهـا القهـوة. كان الرجـل ذاته الذي أثار غضبهـا وافقًا هناك وأمامه غالونهـا مملـوء بالمـاء. لأول مـرة في حياتهـا تلعثمت، وارتبكت، تقدم منها وهو يعرّفها بنفسه واضعًا يده على صدره: كمال.

بلى، كانت قد سمعت بكمال بيك الذي باع كازينو في بلودان بعد أن ورثه من أبيه وبثمنه بنى جامعاً. وفي الوقت نفسه خطر لها أنها لا تذكر متى آخر مرة زارت فيها جامعًا.

وتذكـرت أنهـا سـمعت عنه كواحد من أثرياء دمشـق القلائل جـدًّا المنتميـن لحزب ديني متشـدد. وقتها سـألت نـازك: وما هذا الإخـوان حـزب حقـا؟! كانت مثقفة جدًّا لكـن، حينما يتعلق الأمر بالسياسة تشيح بوجهها بعيدًا وتكره السياسيين. تكره اليمين وتكره اليسار وتقدس الحرية.

وتذكـرت كيـف عشـقت ذات مـرة أحـد الكتاب اليسـاريين، استمرت علاقتها به إلى أن جلب لها في عيد ميلادها وردة حمراء فقـط. سـخرت منـه وقالت لنفسـها، هههه، لن أقـع في غرام رجل يقلل قيمتي بهذا الشـكل. ومن يومها تكره الورد بكل ألوانه وتراه أمرًا سخيفًا يتداوله العشاق في ما بينهم.

كمال يومها لم يعتذر، فقط قدم لها الغالون، وضحكت بينها وبين نفسها وهي تقول أنا التي أقلعت عن رفقة رجل أهداني وردة حمراء. الآن، أغرم برجل يقدم لي غالون ماء. هههه... بلى، نفثت

دخان سيجارتها، واعترفت لنفسها أنا عشقت، أنا عشقت... لا بد أنه يصغرني بسنوات عدة أيضًا.

* * *

قد يرمقك أحدهم بنظرة عابرة ومع الوقت تكتشف أنها تسللت إلى أغوارك كساقية جوفية... هكذا، كانت نظرة كمال بيك بالنسبة لنازك خانم.

أحيانًا، نلفظ باسم من نحب كشكل من التحدي، أو التأنيب، أو قد يأتي لفظنا كلمسة حنان. يومها، احتارت كيف تصنف نازك الطريقة التي لفظ بها كمال بيك اسمها، لأول وهلة تبادر إليها أنه قال لفظ اسمها بشيء من التمجيد. تذكرت قولها ذات يوم لمجيب شان:

- لا أحب التمجيد فكل البشر الذين تغدق عليهم الحياة تمجيد الأبطال، يأتي يوم وينحدرون صوب الهاوية دون رحمة.

الماضي البريء وحده يرحل بهدوء لكن الماضي الثقيل لا يرحل، إنما يقبع لا يبارح دروبنا، أو ذاكرتنا... لا يفتأ يذكرنا بنفسه بمناسبة ودون مناسبة، فجأة يقفز كثعلب ويلوح لنا بأخطائنا وهنا سيحضر الندم، فلا تكثري من الأخطاء يا نازيك هانوم، فعندما تتجاوزين الخمسين ستنشغلين بغسل ذنوبك وتبييض ماضيك.

- منحتنا الحياة فترة الشباب لنخطئ فيها، وهذا ما يحدث، نراكم الأخطاء دون حساب، لن أشغل بالي بعمر الشيخوخة، لن أخاف من شيء قد لا يحدث، ومن يضمن أني سأبلغ الخمسين؟!

- لا تتفوهي بأشياء كهذه لأن للقدر آذاناً رهيبة يتنصت

علينا ويسجل أقوالنا، حتى تأتي اللحظة الحرجة ويشهر حماقاتنا في وجهنا... أحيانًا كثيرة ما يحدث في حياتنا هو ما تفوهنا به في لحظات تكبّر أو غضب أو تحدٍّ.

كثيرًا ما كانت تجد نفسها مستسلمة لحلّ البكرة، بكرة شريط أيامها مع مجيب خان، افتقدته، الرجال في الخمسين يصبحون حكماء! تسأل نفسها وتستذكر تأكيدات مجيب شان حول أن الرجل بعد الخمسين فقط يمكن أن ينشغل بتفنيد أخطائه السابقة.

- اسمعي حبوبتي نازيك، إننا لا نتألم من أشياء نسيناها، إنما الألم يأتي من الأشياء التي نتذكرها...

- ماذا أيضًا عن عمر الخمسين؟

- في الخمسين يمر الرجل في مرحلة المغفرة لمن أساء إليه، والأسف لمن أساء لهم، أما المرأة، فلم أعرف امرأة تأسف لشيء...

يتشاركان ضحكة عالية مثل عاشقين سعيدين منذ قرن من الزمان.

أمام كمال بيك كانت تنتبه إلى ضحكتها "المسعورة" كما كان يسميها مجيب شان.

- ليس مصادفة أن الجميلات من نصيب الأثرياء...

-هههههههههههههه...

- تضحكين؟! اسمعي التعامل مع امرأة جميلة ليس سهلًا، يحتاج إلى الصبر، ورجال المال والأعمال لم يبلغوا ثراءهم إلا بسبب صبرهم، من لا يمتلك الصبر لا يصبح ثريًّا، صبر صياد

السمك ذاته. هكذا، فقط تبتلع النساء الطعم... إنه الدم البارد الذي يمتلكه الأثرياء يسمح لهم باقتناء الجميلات.

يقترب منها ملامسًا ثيابها برقة:

- يمكنني تذوق طعم النبيذ من مجرد تحسس أوراق الكرمة... قال ذلك وهو يتحسس جسدها الساخن...

* * *

نازك بدأت التدخين في عمر مبكر كانت في السادسة عشرة من عمرها، وعندما قررت ترك السيجارة. قدم لها الشاب الأشقر نجوان الفنان الذي درس الطب في رومانيا، علبة سجائر من صنع الغجر قرأت في المكان المعتاد الذي يكتب عليه عادة «التدخين يضر بصحتك» أو «التدخين يسبب أمراضًا مميتة»، كتابة من الغجر تقول: «لتكن المعنويات عالية»!

مجيب شان الذي كان مدمنًا على السجائر كان يذكر لها دائمًا: ثمة دعابة فرنسية تقول إن الفرنسي لا يترك السيجارة إلا ليأكل أو ليمارس الجنس. أي أن ترك السيجارة يتعلق في هذه الحالة بنوعية الطعام أو المرأة...

أول شيء تفعله وقبل قراءة الكتاب، تفتش عن صور كتّابها، هكذا شيئًا فشيئًا تأكدت أن السيجارة هي القاسم المشترك بينهم جميعهم تقريبًا. في البداية ظنتها أكسسوارًا أو موضة. وحده هوميروس كان من دون سيجارة! كذلك سقراط وأرسطو... لاحقًا اكتشفت أن الدخان اكتشف مع القارة الأميركية، وهوميروس لم يكن مدخنًا فقط لأنه لم يقابل الهنود الحمر. ومع صور فرجينيا

وولف وسيمون دو بوفوار تأكدت أنه إذا كانت تريد أن تصبح كاتبة، فلا بد لها من السيجارة... وبعد ذلك بقليل وقعت على صور للمكتشفين والعباقرة مع الغليون: أينشتاين، نيكوس كازنتزاكيس، ألبير كامو، سارتر... وأصبحت تصنف أصدقاءها الكتّاب إلى جماعتين: جماعة الغليون وجماعة السيجارة. وحين يذكر اسم كاتب أمامها تتذكر ماذا يمسك بيده قبل أن تذكر أسماء كتبه!

إذًا، إذا كنت أريد أن أكون أكثر من كاتبة، عبقرية مثلًا، فلا بد من الغليون. وهنا كانت الطامة الكبرى. وذلك لأنها اكتشفت أن الكثيرات سبقنها إلى هذه الفكرة. فيكفي السيجارة مع الجينز المهلهل والشعر المنكوش والهالات السوداء حول العينين... لتصبح كاتبة! ووجدت أن قراءة أدب أولئك النسوة يحتاج إلى عبارة الغجر تلك «فلتكن المعنويات عالية»! لكنها بالواقع كانت تدخن السجائر خفية عن أبيها وزوجته فقط لأنها شيء ممنوع.

هي تعترف لنفسها أنها تحب التعري قبل أن تأتي إلى باريس. وقبل أن تعمل في عرض الأزياء.

في شقتها الصغيرة التي تتقاسمها مع عارضتين واحدة مكسيكية وأخرى روسية اعتادت نسيان أمر الملابس وهي تشرب إبريقًا من «القهوة» المحرضة اللعوبة التي تمرر لنا حلاوتها عبر مرارتها.. شيء يتقن بعض البشر تقديمه لنا... كما كانت تقول صديقتها المكسيكية. وتتفنن بسحب السيجارة تلو السيجارة حتى تفرغ العلبة. كانت تروي لمجيب شان كيف تشرب قهوة الصباح مع رفيقاتها العارضات وهن عاريات تقريبًا وكيف أنه يمكنهن كثيرًا أن يكن ربات القدر لكن، مع تعديل عصري: سيجارة وقهوة.

فالإغريق شعب مسكين لأنه لم يعرف هذين التوأمين القاتلين...

* * *

«نـازك» أخـذت اسـمها من جدتها لأبيها نـازك خانم. مجيب شان وجد في اسم «نازك» قسوة خفية، وعبوسًا هازئًا، عندما توفيت الأم خلال الولادة، أراد الأب أن يُكتب لها الهناء عبر اسم، جدتها «نازك خانم» وقد كانت سيدة واثقة قوية اشتهرت باستقامتها. بينما نـازك الحفيـدة كانت مؤمنة بالنـزوات: «لا بد من النزوات، فلنكن شيطانيين قليلًا». نازك تسخر من تخيلات أبيها بشأن تأثير الأسماء فـي البشـر، واعترضـت على ميزة الاسـتقامة التـي تمناها أن تكون في ابنته، بعد سنوات طويلة كانت تقول لمجيب شان: «الاستقامة تحدّ الحياة، بل وأكثر من ذلك ستضع في وجهنا الحواجز، ستكون الحيـاة مضجـرة، لمـاذا لا يتركنا الأهل لأقدارنـا؟ لكل ما تفترضه الحيـاة مـن لـيّ وطيّ وتقليم... فلنكن مثل الحزن: ما من متاهة لا يجد فيها طريقًا له...

أما عن التأدّب فإنه لا يحدث إلا بالألم الكبير...

لا يخلو اسم من طين ووحل، ما الخطأ في أن يمزقنا الحب ويُطهِّرنا الحرمان. أن نحيا هكذا: نخشى، ونحب، ونرهق، ونذعن، ونهـرب "الأمنيـة الوحيـدة التـي كانت تتمناها نـازك دائمًا هي: أن تمضي في الحياة بلا ضغينة".

4

(ما أطولَ الدربَ، يا حبيبتي، لبلوغ قبلةٍ)

بابلو نيرودا

في مخزن لبيع القبعات ثمة بائع يزكي قبعة لرجل قائلًا: «خذ هذه يا سيد، كل السادة في المدينة يرتدون هذه القبعة».

وفي الجانب الآخر بائعة تقنع زبونة قائلة: "خذي هذه القبعة مدام، ما من سيدة في المدينة كلها لديها مثلها".

هكذا شرح لها أحد مصممي الأزياء ذات مرة في أروقة العرض، ومن يومها عرفت أن من يريد أن يصنع شيئاً للمرأة، ويريد بيعه لها بسعر مرتفع، عليه أن يعرف مسبقاً هوس المرأة بالتفرد إلى حدّ التطرف... المرأة التي تحمل خوفاً مستتراً من أن يقدّرها الرجل باعتبارها أنثى لا باعتبارها فرداً. تخاف من أن يرغب فيها لا باعتبارها امرأة بعينها، بل باعتبارها الانثى الاقرب لمتناوله. أي كم هي سهلة إثارة الرجل جنسياً وكم هو عسير جعله يحب... هكذا، قال لها ذات مرة مجيب شان. فما انتشار دور الأزياء بذلك الشكل الكبير إلا دليلًا على أن ثمة أزمة حقيقية تعيشها المرأة بشأن ثقتها بنفسها.

كان يردد دائماً: «كيف تقبل المرأة بهذه المساومة؟ كيف تقبل أن يضع لها رجلٌ شروطاً ليحبها الرجل؟

كيف ترضى أن تكون دمية يلبسها ما يشاء؟! كيف لا تدرك النساء أن الرجل عندما يحب، فإن ذلك يحدث وانتهى الأمر. أما عندما يقترح على صديقته أدنى تعديل... فإنه يستعملها لتمرير الوقت المستقطع.

لا تفعلي شيئاً ليغرم بك من لا يستحقك... إنك بذلك تضمنين استثارة جنسية بحتة من قبله، لكن شتان بين الحب والجنس. أنت

بذلك لست إلا متاع.

هنالك أغنية كان يغنيها الأطفال تقول الأغنية:

أحب القهوة

أحب الشاي

أحب البنات

عندما يحببنني

طبعاً، الرسالة واضحة: فلنحبب عندما يحبنا أيضاً الطرف الآخر. وإلا فإن الأمر برمته كذبة.

لا تظني يا نازيك أن عطوراً من كريستيان ديور يمكن أن توفر لك حباً. مهما تطور البشر يبقَ الحب من النظرة الأولى وليس من الحقيبة الأولى أو الحذاء الأول.

أيضاً، عليك أن تقتنعي بأن الرجل الذي يضع لك شروطًا في طلتك وثيابك ويريدك لتشبهي أخرى هو أولًا: رجل بائس ويائس، وثانيًا: أنت لا تقدّرين نفسك كما يجب وأنت محض غبية تلهث وراء ترهات الآخر الذي لا يحبك لكن، يستغلك. ويعوض عن حب فقده.

أن تكوني محط لفت نظر شيء، وأن تُعشقي، وتكوني محبوبة شيء آخر.

الحب لا يُفتعل. لا يفبرك. وكل ما عدا ذلك كذب.

تلك القناعات كانت راسخة لدى مجيب شان.

* * *

تنقّل خطواتها كطاووس "ما أسعد الطواويس!". تهتف نازك خانم بينما مجيب شان يستثني الطواويس في إيران، لأن الشاه كان يقدمها كطبق رئيسي في حفلاته الإمبراطورية.

بعد قرون طويلة من التجلبب الأعمى الذي لفّ عيوب النساء ومفاتنهن. أصبحت المرأة تدرس تضاريس جسمها، فترتدي ما يخفي العيوب ويبرز المفاتن. لكن من تمتلك جسد نازك لن تحتار بما تلبسه. كانت تلبس أي شيء لتبدو جميلة وهي مقتنعة بأنها وهي عارية أكثر جمالًا.

زينت قمة رأسها بضفيرة شقراء كانت أحدث تقاليع موسم شتاء 1966. في ذلك الموسم بالذات ظهر عطر "سوفاج" أي الماء البري. وفتنَ نازك التي لم تعرف مطلقاً الإخلاص لعطر بعينه. ولم تعد مكترثة لرائحة "تتسلّل" إلى أسرار "الآخر". إنما تريد رائحة "تتفشّى" في مجاهل "الآخر".

بعد أن حضرت واحدة من حفلات "جاك بريل" الأخيرة في "أولمبيا" قبل أن يعلن اعتزاله الغناء. ظهرت في فندق سافوي في لندن خلال عرض لنساء يرتدين زي الأرانب. وعلى إحدى الموائد العامرة بالأثرياء العرب خلعت نازك بالطو من الصوف البيج خطوطه واضحة وجيوبه كبيرة وأكمامه واسعة، والكتف تعلوه قلبات تنتهي بأزرار، ولمع بياض بشرتها متناغماً مع لمعان قماش البروكار المشجر لثوبها القصير الخالي من الأكمام، تزينه أزرار نحاسية تعبث بها أنامل مجيب شان وهو ويتحرى الأزرار بأصابع ملحة ويهمس لها: "ثوبك يا حبي لا يحتاج الأزرار". تعبر نازك

عن استهجانها لفراء الأرانب، الذي ساد كموضة لذلك الموسم، معتقدة أن الرجال يروّجون لفراء الأرانب بين النساء، لأن ثمنه رخيص مقارنة بفراء كائنات أخرى... كانت تتحسس بشرة وجهها بين وقت وآخر لتتأكد من مزايا كريم الأساس ماركة "إليزابيت أردن".

بعد أن حضرت افتتاح فرعين لنادي "بلاي بوي" في لندن تفرغت للجلوس في المقاهي وملاحقة شوارع لندن. التي كانت تعيش هجمة خنافس الألمان وهم يظهرون بملابس رومانية لتميزهم عن خنافس الإنكليز الذين اشتهروا بشعورهم الطويلة، وتسريحات حملت أسماء غريبة مثل تسريحة "جنكيز خان" مع الشارب المستدير، ونازك "تخنفست" وجاملت الطرفين وارتدت الجونلات القصيرة والأحذية الرومانية الطويلة الرقبة... والزي العسكري. دون أن تنسى تثبيت "بوستيش" على شكل ضفيرة سوداء في قمة رأسها تماشياً مع الموضة... وخفية عن "الخنافس" مارست هوسها بالماركات الثمينة وابتاعت ساعات بياجيه وأوميغا كونستيلاسيون فيما كانت تدخن سجائر أستور.

* * *

اللوحة الوحيدة التي أضافتها نازك إلى جدران قصر مجيب شان كانت لوحة تذكرها بتلك الأيام:

يوم كانت نازك تسكن في شقة صغيرة في قلب باريس مع عارضة مكسيكية بلون الشوكولاته وهناك في الصالة التي تشرب

فيها قهوتها الصباحية، حيث كانت كل يوم تستحم وتخرج إلى الظبي الجميل الذي يحمل رأس امرأة سمراء معقودة الحاجبين.

لا يمر يوم دون أن تقول للظبي الطعين "بونجور" وهي تقضم كعكة الصباح... تفكر، وتحتار بتسميته، وبانتقاء اللفظ المناسب لذلك الكائن الطعين حتى الصميم. ومن كل الجهات المحتملة انغرزت فيه السهام القاتلة... فهل تسميه: غزالًا، وعلًا، أيلًا...؟! أم تراه ظبياً مغدوراً لا مثيل له بقرونه المتشعبة التي تتوه في فضاء غابة تنهمر عليه عشوائياً عبر ألوان تميل إلى الاخضرار المنحاز إلى سماء بعيدة، يشتعل بجراحه، مدجج بشتى أشكال القبور التي تحفرها السهام المنقضة من كل اتجاه صوب جسد الظبي.

لا تعرف نازك بالضبط ما إذا كان فعلًا مجيب شان قد وضعها في باله منذ لقائهما الأول لكن وسيلة بوسيس كانت طيبة القلب وهي تقبل استضافة نازك عندها حيث تقيم في قصر مجيب شان.

وسيلة، القروية الطباع والقلب، لم تكن تعرف خبث أبناء المدن ولم تحزر السبب الحقيقي وراء طلب نازك إلا متأخرة. والأهم من ذلك أنها كانت متأكدة من ولع مجيب شان بالبشرة السمراء، كان يؤكد لها دائما أنه عاشق السمراوات، وعليها فقط أن تخشى من منافسة سمراء طويلة القد، وبالفعل ماضيه الزاخر بالممثلات والعارضات لم يكن يحتوي أية امرأة بيضاء.

لم تر وسيلة بنازك منافسة حقيقية لها، وحين أخرجهما صاحب الشقة، وأنهى عقد الإيجار عقب شكوى جماعية من الجيران بسبب

الضجة التي كانت تحدثها كل من العارضة المكسيكية ونازك خلال نوبات الرقص اللاتيني التي كانت نازك تنخرط بها مع رفيقتها، وجدت نازك نفسها تعثر على الفرصة المناسبة... وكما توقعت لم تجد ممانعة من وسيلة التي قبلت استضافة زميلتيها لمدة أسبوع فقط كما أكدت لها نازك حتى تعثر على شقة مناسبة لها ولزميلتها المكسيكية.

لم يكن من قبيل المصادفة أن تخرج نازك ترتدي مئزر الحمام مفتوحًا يكشف عن جزء كبير من جسدها، وتتعمد التجول بذلك المظهر المغري في حديقة القصر. بعد يومين فقط علمت أنه من عادة وسيلة الاستغراق بالنوم، في حين مجيب شان ينهض قبلها ويشرب قهوته في وقت مبكر من الصباح في حديقة القصر الخلفية التي تعج بالتماثيل الرخامية لآلهة وأرباب الأولمب...

كانت قريبة من تمثال لامرأة من الرخام تتنكب جعبة سهام، ويلحق بها وعل بقرنين طويلين، في الحال ذكّرها بلوحتها المفضلة للرسامة المكسيكية... هنا، ظهر مجيب شان كما كانت تخطط نازك وتتمنى، كان يمشي وراءها وهو يحكي لها عن تلك الربة الرخامية: إنها دايانا ربة القمر والصيد والغابات والليل والرعاة عند الإغريق... حين التفتت إليه وهي تتظاهر بالمفاجأة وتعقد زنار مئزرها بعد أن ضمنت أنه رأى ما قد يخرجه عن طوره... لم يكن يبدو عليه أنه مأخوذ بجسدها، كان ينظر إلى عينيها مباشرة. قال لها بلهجة محايدة لا تشي بشيء:

- أخشى أن تفعلي بي مثلما فعلت يوماً الربة دايانا بالصياد أكتيون...

- أكتيون؟!

- الصياد الذي كان يتجول في الغابات مع كلابه بحثًا عن طريدة، وحدث أن اختلس النظر إلى الربة دايانا ورآها عارية تستحم في جدول بعمق غابة قصية... تخيلي حجم الكارثة عندما يقع آدمي بفخ النظر إلى أحد الأرباب عاريًا!

- هههه إذًا، الأرباب يستحمون؟!

- غضبت فحولته إلى غزال... لم تكد كلابه تراه حتى أسرعت نحوه ومزقته...

* * *

هكذا لوحة فريدا كالو الظبي الطعين يقول لك: الجرح في كل مكان، تمامًا كما الموت... للحظة مباغتة قد يبدو لنا ان الظبي خرج يتنزه في الغابة برفقة جراحه القاتلة... كما لو أن فريدا تقول لنا وهي تنزع رأس الظبي وتثبت مكانه وجهها بذاته: ها أنا أتنزه مع ميتاتي كلها السابقة واللاحقة...

ونقرأ بعينيها هيامها العنيد بكل ما أحبته... في وقت تمضي فيه صوب الموت، وهي تعرف مصيرها المحتوم...

العارضة المكسيكية حكت لنازك عن رسامة المكسيك فريدا كالو، تلك المرأة التي لا تشذب نفسها مطلقًا. يشهد على ذلك حاجباها الكثيفان المقرونان بعقدة من الشعر الأسود إضافة إلى الزغب الأسود الذي يعلو شفتيها والذي تلجأ عادة النساء إلى التخلص منه. لكن فريدا لا تكتفي بالوقوف أمام العدسات وهي

في تلك الحالة غير المشذبة، أيضًا لا تنسى إضافة ذاك الزغب الأسود بريشتها نفسها لوجهها الصريح الذي ترسمه في غالبية لوحاتها.

إنها لا تنبذ ما زرعته الطبيعة على وجهها وجسدها. وهذا ما لا توافق عليه نازك...

لكن، رغم كل شيء كان ذلك الظبي الطعين يستوقفها كل صباح مفتونة برسامة استثمرت الجراح التي استعبدتها طوال حياتها حولتها إلى حالة من الفتنة، كل اعتلالاتها الجسدية تبدو حدثًا جذابًا على أرض اللوحة، لوحات طافحة بالسرد، بالزمن نداءات تؤكد حقيقة الحياة بدون استجداء شيء. يخيفها الحب، لا الموت، فيما يخونها الأمل العديم الصبر.

* * *

النساء معجبات بالثعالب، وعبر القبعات أردن أن ينتحلن مواهب الثعالب... نازك كانت تبرّر لمجيب شان ولع النساء بجلود الثعالب:

مع خريف 1967 حذر خبراء الموضة، من مَكر المرأة في ذلك الشتاء. حين تربعت الثعالب "الحقيقية" المحنّطة على رؤوس النساء. وقتها لجأ مصممو الأزياء في باريس إلى استخدام وجوه الثعالب المحنطة في عمل القبعات للسيدات... قررت المرأة أن تكون من أعوان الثعلب: سارق، متجرئ، متسرب، متسلل، زاحف، وبسرعة زرعت التشوش في رؤوس الرجال وهم يراقبون

الأنثى الجديدة التي تمتلك مزاياها الموروثة كأنثى وأخرى مكتسبة تنتحلها من كائنات فريدة: جميلة وخطرة ومخيفة، كالثعالب والنمور والثعابين... وغدا أي رجل يخشى أي امرأة قد تأتي لحظة مباغتة وتستثمر كنوز القوى التي جمعتها من أخطر كائنات الطبيعة وارتدتها.

المرأة تتحرر، وتسكنها لهفة التعذيب، "نازك" تعتمر قبعة مزينة برأس ثعلب، وتتدثر بمعطف من جلد نمر، وتحتذي جلد الثعبان، وتضع أغراضها الشخصية في جلد تمساح، وتجزّئ قلبها، وتقسمه، إلى غرف سرية.

أصبحت المرأة "محبوبة" تحتمل كل الأسماء، لا استكانة، لا غبن، طموحات كبيرة وبعيدة. ورغبات متأججة كشف عنها الميني جوب وآمال بكعوب عالية.

ومثل آلهات العالم القديم اللواتي كن يكشفن عن رؤوسهن وأثدائهن والركبتين.

مع الميني جوب لم تستدن حقوقها أو تستعيرها موقتًا من الرجل أو التاريخ. إنما أخذتها منتصرة ومصرّة، ولم تلقِ بالًا لعيون التقاليد المتوسلة...

نازك لم ترضخ دائمًا للموضة، تمسكت دائمًا باللون الأحمر الصريح، رغم أن ذلك اللون اختفى سنوات عدة خلال الستينات، ولم يعد إلى لائحة الموضة إلا مع بداية السبعينات، اختفى تقريبًا منذ عام 1962 لصالح ألوان أخرى للشفاه جميعها فاتحة. وقتها توفر في سوق النساء ما يقرب من ثلاثة وثلاثين لونًا من أحمر

الشفاه دون أن يكون اللون الأحمر الصريح بينها، وثماني عشرة درجة من بودرة الوجه، وثمانية ألوان من بودرة الخدود اقتنتها جميعها نازك. لكنها لم تستخدم غير اللون الأحمر لمكياجها. مع بداية السبعينات أضافت إلى خزانة ثيابها، دون أن ترتديه، البني المحروق، الذي اكتسح ذلك الموسم. وأحذية كعبها مربع لم يرق لنازك ذلك الكعب المربع لكنها الموضة...واستبدلت سجائر أستور، بسجائر فيليب مورس الفاخرة وقضت سهرة رأس السنة في ملهى لوردز في منطقة رأس بيروت ووافقت مجيب شان على إعجابهم بما يقوله صناع أفلام جيمس بوند الذين يرون أن (المرأة أقدر من الرجل على أن يكون لها وجهان) وبينها وبين نفسها كانت قد جربت عما لا يقل عن سبعة وجوه تمامًا كأرواح القطط...

اختارت جدارًا عاريًا لتعلق عليه لوحة «هرّ بيكاسو»: رسمه بخطوط صارمة ضرورية ومنطقية، في مخالبه بدا ذلك التناحر البعيد الأغوار، بين اللطف الموقت والعداء الأصيل... بدت أيضًا حماقة التهور لكائن يريد السيادة تتسرب من ملامحه طاقة مغرية، عنفوان يتحفز وصبر ينفد، مخالب تبرز بصورة مبدئية وجذرية تحترف الرشاقة واللعب والخفة، خطوط بيكاسو المقدامة أبرزت قدرة الهر على الهضم...

5

(أكرهها وأحبها: هذا الإحساس المزدوج أيتها الآلهة:
لماذا أحب؟ ولماذا أكره؟)

كاتول

- «لا كبرياء في الحب». بشكل قاطع، قالت لها العمة شاهي، وهي ترتشف قهوة الصباح مع ابنة شقيقها التي كانت مدللتها الوحيدة في صغرها.

والمشكلة هنا أنها تحب كمال، من النظرة الأولى داخت وتلونت بالتوق.

نازك لم تكن تنقصها الخبرة في الحياة لتعرف أن هنالك من لا يحتمل رؤية اثنين عاشقين مدلهين ببعضهما وتبدأ زوبعة "حاسد إذا حَسَد". ومن لا شيء يحدث كل شيء، تجمع النقمة نفسها وتزوبع فوق العاشقين، وتعصف وتقصف وتدمدم. هنا الخطر عندما يصغي أحد الطرفين لكلمات حاسد ويزداد الطين بللًا ويتحول وحلًا خبيثًا يصطاد خطى الاثنين وينصب لهما الفخاخ ويختبر رشاقة تحركاتهما... العمة شاهي تضيف بلهجة محذرة:

«هنا تعثرت يا حبوبتي نازك، خرجتِ مع رشدي بيك، ورآكما كل الناس في الكازينو، إنها النمائم والوشايات، اختلطت الأوراق... اثنان من أزواج أخواتك كانا موجودين.

كانت شاهي خانم تقصد شبلي بيك ونجوان بيك وهما كانا مغرمين عتيقين بنازك التي رفضت كليهما وتركتهما حانقين عليها قبل أن تغادر إلى باريس... وتعرف أن كل من حولها المتنكرين بأثواب الصداقة والصدق استغلوا خصاماً عادياً يحدث بين أي مغرمين، وصدّق كمال كل ما قالوه وكذّب من يحب!

خاصمته ومارست رد الفعل الطبيعي عند أنثى لها كرامتها وتصعّد كبرياءها. تتابع العمة شاهي:

- لم تسمعي أعذاره، ولا تغفرين له كلمة صرحها عنك، وهو غاضب منك لأنه يحبك.

قطعت حبال الوصل، ودست على قلبك وتظنين أن في ذلك قوة! يعز عليَّ أن أراك تمرين شاحبة الملامح حزينة العينين. وكلما صارحتك شهرت في وجهي كبرياءك وقلت: لا، نسيته.

* * *

الشام؟! بالبراعة ذاتها التي تحمص فيها الكعك وتحضر طبق الفول وتحوك الدامسكو تفتعل الانقلابات... مدينة نَفَسُها قصير مع الرؤساء، تستبدلهم كما تفعل امرأة لعوب مع رجالها... "يكفي أن نلقي نظرة على واجهة مصور دمشق الأرمني كربيس حتى نعرف الرئيس الجديد..." هكذا، كانت تقول العمة شاهي لنازك عبر الهاتف عن دمشق، أيضاً كانت تحكي لها عن الاشتراكية التي أصبحت تسمع عنها في كل مكان في دمشق.

مجيب شان يضحك مما يبدو سؤالًا عابرًا من نازك عن «الاشتراكية»، كما لو أنها تسأل عن حذاء في واجهة محل... يجيبها مجيب شان دون حماسة: «من أهداف الاشتراكية أن يصبح المثقفون ثروة وطنية، يفضل الوطن نفيها بعيدًا، وإذا أمكن اغتيالها أو إحباطها... والكذب يرتدي الشعارات مع أفخر الثياب، ويذرع ردهات القصور حاملًا لافتات الاشتراكية. ومن أجل مجده الشخصي يستولي على الإذاعة والصحف والمحطات التلفزيونية لتزعق: «من أجل الجميع» وكالفطر يتكاثر صحافيون يكتبون تقارير الوشايات بدلًا من المقالات...».

تحكي له نازك: «في الشام أصبحت الاشتراكية بوفرة الأنفلونزا، تقول لي عمتي شاهي: تفتحين الباب، تطلين من النافذة، تذهبين إلى السوق كل شيء «اشتراكية»، وباسمها ستزداد قائمة المحظورات».

مرة اخرى تسأل:

- وماذا تعني اشتراكية... بالضبط؟

- أي أن نُصوّت دون أن ننتخب... مثلًا.

- فهمت.

* * *

زمن مقطع الأوصال... مفضوح، مبعثر، مفتّت، مجروح، مشّوه، كاد أن يكون ميتًا، لولا قدرة البشر على الانبثاق من قلب الجرح... هكذا، كان العالم عمومًا عقب الحرب العالمية الثانية، وأوروبا تحديدًا. حيث انحشر البشر في زاوية البحث عن المنقذ «الروحي» فوجدوه في «الكمال» الذي لا يمكن أن يوجد بمعزل عن الجمال... ليس أيّ جمال أرادوه... أرادو الجمال الكامل، بسبب الدمار الذي أحاط بهم، رغبوا بالجمال المطلق إلى حد العنف، يريدون للأحلام أن تجرفهم للأمام بعيدًا عن مخلفات الحرب.

في ذلك الوقت كانت السينما قد أعلنت عن نفسها كمفخرة اختراعات القرن العشرين. حيث يمكن لوجهٍ بعينه أن يكون نقطة علام على خريطة التاريخ.

نازك لم تنس إطلاقًا أن تتشبه ببريجيت باردو. كل النساء كن يقلدن تلك المرأة، ونازك حين صبغت شعرها الطويل وبمساعدة عينيها النجلاوين وجسدها البلوري، عثرت على طريق معبد إلى حيث تريد.

كان العالم يريد تلك الغواية الانفجارية المدوية، مع كل فيلم جديد كانت باردو تجرّ الجسد الأنثوي وراءها، بعد أن ظل لقرون طويلة شبه مطمور... شبه مندحر في سراديب العتمة، شبه مدفون بلفائف القماش. خرجت بريجيت بعريها الصارخ الجمال، غير عابئة بأحد، وتلقّف العالم الجديد، عبوة الديناميت هذه بشغف، وكانت بمثابة صرخة استغاثة عظمى من زمن الويلات وتفخيخ لطاقات الشباب وكبريائه والتمسك العنيف بالجمال وشكل فيلم (وخلق الله المرأة) أعمق رجة في الوعي الجمالي في ذلك الوقت في عام 1956، لتبدأ رحلة تعزيز الوجود الأنثوي الجديد، وبالصيغة الصريحة المعلنة في وضح النهار.

رغم أنها اشتهرت بخفة خطوها إلا أنها في الحقيقة كان لوقع خطاها وقع ضربات مطرقية تزلزل الذهنيات العتيقة وتعلن عن زمن مستقبلي قادم. ومع كل ظهور لها أكدت أنها الفأس التي لا ترحم الجذور العطنة. وجهها الشهواني وجسدها المرعب الكمال، وعريها الجريء، أمور جعلتها مصدرًا لمردودات عالية من العملة الصعبة بحيث فاقت مردودات أفلامها مداخيل مصانع بيجو الشهيرة للسيارات. لهذا السبب، اعتبرها ديغول (ثروة قومية) وقال لها جملته الشهيرة (أنت أجمل عسكري في فرنسا) قال ذلك وهي

تدخل القصر مرتدية الملابس العسكرية لكي يتم تقليدها وسامًا فرنسيًّا مدنيًّا بمناسبة العملة الصعبة التي أدخلتها أفلامها إلى بلدها.

في عام 1974 كانت نازك تبلغ العمر ذاته لبريجيت باردو التي بلغت التاسعة والثلاثين من عمرها، قررت الاعتزال قائلة: «مثلت 48 فيلمًا وكانت خمسة أفلام منها فقط جيدة والباقي لا يساوي شيئًا. لذلك، لن أمثل بعد الآن».

ودعت السينما بعد أن أرّخ وجهها بداية عصر جديد في طريقة تذوق جمال المرأة. ونازك قررت اعتزال باريس وعادت إلى دمشق.

* * *

من مزايا هذا العصر أنه شهد اختراع الكاميرا، وكتب للبشر أن يتسنى لعدسة صغيرة أن تحفظ لهم ذروة شبابهم في صورة فوتوغرافية يمكننا أن نحفظها أين ما شئنا.

انتهى عذاب النحات، وولى زمن الأزاميل سابقاً كان الجمال ينقذه الرخام لهذا مرت كل تلك السنين، وجمال الأولين محفوظ معزز مكرم مخفور بعناية المرمر.

أحرزت لنا الكاميرا أشياء كثيرة كذلك قضت على أشياء كثيرة. كان مجيب شان يقول أمام الجميع:

«لو أن فينوس لحقت بعصر الفوتوغراف لما حظي العالم بتمثالها الشهير الذي نحته يومًا فيدياس، والذي رأى الجمال الحقيقي يومًا متجسداً بجذع فينوس العريض، ونحافة خصرها المرسوم، وامتلاء ردفيها ودقة الرقبة والكتفين الممتلئين والمدورين

والصدر المزدان برمانتين ممتلئتين. حتمًا كان سيصاب فيدياس بأزمة قلبية لو رأى النساء النحيفات اللواتي يجبن شوارع باريس هذا الزمن...».

العري هو الجسارة الأولى في عالم التفكير. لهذا، فهم الأقدمون أسرار العري وقدسوه، مقدسين بذلك الجسد البشري الفاني.

يومها حكت لهم نازك ما أثار دهشتهم، كيف أن جسد فينوس المنحوت كان مشكلًا وفق جسد فتاة دمشقية اسمها أسبازيا كانت شهيرة في أثينا وتزوجها الحاكم رغم ما كانت أثينا تخترعه من إشاعات حولها. والغريب أن التمثال الوحيد الذي يحمل اسمها الحقيقي والموجود في متحف دمشق الوطني تبدو فيه مدثرة بعباءة شرقية لا تشي بشيء من معالم جسدها فقط. وجهها ينبثق من الرخام متحديًا الزمن.

مجيب شان علق متهكمًا: «مع احترامي الشديد لجمال أسبازيا لكني لن أوافق على تمثال لامرأة مدثرة بعباءة لتكون ضمن حديقتي... كيف أفعل ذلك وأنا الهارب من العباءات وسوادها المظلم».

حدائق مجيب شان مزدانة بأولئك اللاعبين العراة حتى من ورقة التوت. كان مولعًا بالإغريق ذلك الشعب الذي أعلن أن العري الصارخ هو الذي يحببنا بالثياب (لا بد من وجود عقل كبير للتغلب على الملابس) اكتشفوا جمال النقيضين... عرفوا أن العورات الحقيقية هي بالتفكير بطريقة تفكيرنا، ومحاكماتنا الآخر ونظرتنا له.

لطالما تجولت بين تماثيل مجيب شان الرخامية، ما أروع الرخام الذي سحب من براثن الدهر جمال آلهة وأرباب وحسان وجميلات! لولا أزلية الصخر لما رأى أحد الربة فينوس محفورة بخطوط واضحة تتحدى الزمن ذاته تقدم زهوة شبابها وأنوثتها للناظرين. صباحات كثيرة قضتها مفتونة بما فعلته أزاميل مولعة بالقوة والشباب فنحتت عضلات تريد أن تقول انظروا هأنذا أكاد أوازي الزمن جمالًا وغرورًا.

هناك، استغلت نازك أهم منجزات العصر الحديث وواظبت على تمرين جسدها بتمارين رياضية على آلات تساعد أي امرأة، لتحافظ على جمال معقول وشباب جسدي قد يصل حتى الستين ولم يعد عمر الأربعين مخيفًا لنساء القرن العشرين.

نهضت كل النساء اللواتي كن متمددات بهياكلهن العظمية الممشوقة، كتاريخ، وغادرن مدافن الزمن السالف، كل تلك الأشياء التي كان يحبها الملك ويفضلها كانت تموت معه: نساؤه وخيله وخدمه مجوهراته.

كلهن ربات الحب: عشتار وفينوس وإيزيس، اختزلن بامرأة واحدة: نهضت من الركام وخرجت من متاحف مليئة بالموتى، من تماثيل البرونز والمرمر والطين المشوي والجبس، ونفرت من جدران الكهوف، ومن جوف الغابات، لتخلق الانفعال ذاته. ذلك الافتتان الذي يسري بالرجل كقشعريرة رعب.ذعر ملّاح وسط بحر هائج. خرجت من دواوين الشعر لتُصفّي ميراث «الحريم»، فيما «الرجل» يلاحقها مثل البوليس السري، وقد خاف من أنثى كفّت

عن الانتماء إلى أسرة الآلهة مثلما هجرت «الحرملك».

كلهن من نسل المرأة الأولى التي خاطت ثيابها من لحاء الأشجار وصنعت أمشاطها من ظهور السلاحف وبقايا هياكل الحيتان والقواقع، شحذت همة الرجل ولمعتها ليجلب لها الذهب والعاج لتزين ضفائرها.

* * *

نازك مولعة بألبوماتها، تحتفظ بكل صورها، لم يحدث أن أتلفت أية صورة، حتى تلك الصور القديمة وهي تقف في ذلك الخريف المبكر من عمرها، وهي في الحادية والعشرين من عمرها، عندما هجرها حبيبها مارك حين وقفت أمام عدسة "جانو" وهو من أشهر مصوري باريس الأرمن، مثل الخريف أمام خيار واحد: كبرياء التجدد في وجه الورق المصفر الآفل.

في نظرتها يتسمر ظبي يخشى أن يتلف شيئًا ما دون قصد.

نظرة بدت مثل سبورة عليها آثار شيء ممحو.

تمر الذكرى أمام عينيها مثل هبة ريح مفاجئة تأتي وتمر كما لو أن ليس هناك أحد.

عينان مليئتان بالرغبة والطيبة.

ترتدي قبعة دون زخارف في وقت بدأت فيه المرأة تنبذ الريش والمطرزات، بدأت تلقن الرجل طرازًا جديدًا من الأنوثة وقتها فاحت رائحة عطر نفاذ في زمن سادت فيه العطور النفاذة والمتنافرة، عطور دسمة محملة برائحات البهارات وخشب

الصندل، حل بدلًا من الروائح الخفيفة المعتمدة في تكوينها على روائح الفاكهة.

احتاجت نازك وقتًا طويلًا حتى استطاعت أن تمر أمام الآخرين في صيغة أثيرية، تعبر في الشارع وتخلف وراءها رائحة راسخة، رائحة تشبه شيئًا ما يمتنع البحث عنه، والعثور عليه، وربما فقدانه أيضًا.

أصبحت تأبى البقاء امرأة «واحدة» تريد أن تكون «متعددة» مثل ريح تهب من كل الجهات. الأنوثة واحدة من عواصف القرن العشرين والحبلى بالبروق والرعود أصبح هندامها طقسًا للوجود والحضور تحضّرًا أو تقدّمًا أو انتقامًا.

في ذلك الوقت راج عطر «سكاندال» والاسم يعني «فضيحة» وعطر «رومور» أي «شائعة» عطر مكون من خلاصة عطور ثمرية مع مرافقات أخرى: رائحة خشب الصندل، تبغ، بهار.

بين وقت وآخر كانت نازك تلتقط صورة جديدة. كما يفترض بها أن تفعل إزاء شيء عديم المبالاة مثل الزمن، تلجأ للخديعة التي تمنحنا الوهم الموقت بالبقاء.

* * *

جميل، حلو، ملفت، مميز، لطيف، حسن، مليح، مثير، جذاب... مفردات قد يراها البعض أنها تؤدي معنًى واحدًا تقريباً. لكن، في باريس كان أصدقاء نازك يرون أن الجمال شيء والجاذبية شيء آخر.

أصبحت باريس تفضل الجاذبية، وبدأت الصحف تستخدم تلك الكلمة كثيرًا.

أجمع الكل على أن الجاذبية تتضمن الغموض فيما الجمال يكون واضحًا ومباشرًا.

الجاذبية تكمن في الحركات صغيرة وتفاصيل صغيرة.

إنها النظرة إلى الأشياء هي التي تصنع الجاذبية.

ما يمكن أن يكون جذابًا بالنسبة إليك، لا يكون كذلك بالنسبة لي...

دارت أحاديث طويلة بين الرجال حول الممثلات الجذابات والجميلات. وراحت الجلسات تتحول نقاشًا طويلًا حول الاختلاف بين الجيد والجميل: الفلاسفة يرددون أن (الجيد هو شيء نتمناه ونريد أن نمتلكه، مثلًا: عمل معين هو بطوليّ ونريد أن نكون الشخص الذي يقوم بهذا العمل - بينما الجميل هو شكل يمكننا أن نلاحظه من دون أن نمتلكه).

الفن من خلال الأدب والشعر والرسم يريد ابتكار الجمال لينافس الأصل... لهذا، ما زالت الموناليزا تعلن بابتسامتها عن أكثر من شيفرة ولغز وسر. نازك لم تكن معجبة قط بالموناليزا. لكن، هكذا العالم أصبح يرى أن الغموض أشد تأثيرًا من الجمال الواضح، الصريح. وارتبط الجمال الأخاذ بميزة الغموض وغدت النساء تلهث وراء افتعال هذه الميزة دون أن ينتبهن إلى أن الجاذبية ليست شيئًا تفبركه...

كانت مقاهي باريس تردد عبارة الكاتب الفرنسي غوستاف

فلوبير بدهشة من كاتب اختصر وصفه لجمال بطلته الشهيرة "إمّا بوفاري" النادر بعبارة واحدة "يا لشحوبها الرائع". قيّم جمالها بعيدًا عن الأوصاف المعتادة كجمال العينين وامتلاء الردفين... مجيب شان كان يضحك ويقول لا يمكن فلوبير أن يستغني عن الردفين الممتلئين لخاطر وجه شاحب... يضحك رجل آخر ويقول:

- ربما تلك ميزات افترضها فيها سلفًا لكنه اخترع تميزها بإضفاء "الشحوب" وهو ميزة لا يتفق كل الرجال على جاذبيتها، كما أنها ميزة "أرستقراطية" بحتة لن تلفت نظر خادم أو عامل أو حتى قروي مثلك مثلًا يا مجيب شان، تلك أشياء... يتذوقها عادة من رأوا ولمسوا أنماطًا كثيرة من الجمال ووصلوا أخيرًا إلى تخمين ذروته... مجيب شان يضحك:

- آه حقًّا! كيف أغرمت بفهدة أمازيغية ثم عشقت امرأة ناعمة بيضاء خارجة من كتاب ألف ليلة وليلة؟

- عندما نقرأ تتغير ذائقتنا للجمال... تتمتم نازك ثم تقول بعد أن تشعل سيجارة جديدة:

- لكني ما زلت لا أحب الموناليزا.

- لكنك مغرمة بمكعبات الداعر بيكاسو... يقول مجيب شان الثمل.

بسبب إعجاب مجيب شان بالكاتب الروسي "إيفان بونين"، قرأت مجموعته القصصية "الدروب الظليلة". ستكون قد عادت إلى دمشق عندما تستذكر تلك القصة التي لم تنسها قط التي تحمل عنوانَ: "ناتالي" يذكر على لسان بطله ما يراه في الجسد العاري

لناتالي التي ستغدو لاحقاً ألم حياته: (... تتألق حسناء عارية ممتلئة القد، بيضاء كما لو كانت من زلال بيض مجمد، نأت عن الناظرين بجانبها واقفة بمحياها الأبي، وبكل ظهرها الثقيل والعجز المكتنز وسمانة ساقيها الضخمتين..) فقط الذائقة الراقية ستلتقط "الإباء" في أنثى عارية! وفي لقطة أخرى يقول بونين ما تحفظه نازك وتردده بينها وبين نفسها كلما رأت نفسها في المرآة وهي تستفيق صباحًا: (... إذ تذكرت بغتة ذلك الشحوب المميز للأموات ولكنه رائع، لقد هزني من الأعماق بلا وعي لدى دخول السيدة...).

* * *

نازك كانت تتفوه بآرائها دون حسابات مهما أترعت الجلسات بمثقفين من العيار الثقيل كانت تسخر من فرجينيا وولف وسيمون دو بوفوار والموناليزا وتدافع عن فرانسواز ساغان التي لم يزل يحسدها زملاؤها لأن النجومية بلغتها على طبق من ذهب فأربكتها مثلما أربكت بقية الأدباء.

مثلما الفشل صعب، كذلك النجاح صعب.

- يكفي العنوان الذي اختارته لروايتها الأولى «بونجور أيها الحزن» لنرى نبوغها الحقيقي. ليس سهلًا أن نعرف الحزن، وأن نشخصه في ذلك الوقت المبكر من العمر. بهذا، تدافع نازك عن رأيها. وتتابع وهي تنفث دخان سجائرها باستخفاف بشلة من المثقفين حولها: في السابعة عشرة من عمرها اشتغلت على الحزن ونقحت تلك المفردة ودورتها في دماغها فيما هي تردد بينها وبين

نفسها قصيدة لبول إيلوار يلقي فيها التحية على الحزن ويعامله كجار له أو كصديق قديم لا يستطيع العيش من دونه.

إضافة إلى الحزن في حياة ساغان كان هنالك الحظ الذي حولها بين ليلة وضحاها، أديبةً مشهورة لا تملك الوقت الكافي للتوقيع على النسخ التي راح يسارع إلى شرائها المعجبون.

ما ميز ساغان عن غيرها من كل أدباء العالم والذين قبلها والذين جاؤوا بعدها هو: الحظ، هكذا كان يقول حسادها.

الحزن ذو الوجاهة الشاحبة، تفضلَ ودخل صالونات الأدب في فرنسا على يدي مراهقة، بكل بساطة رأت فرانسواز ساغان كيف أن الإنسان تطور كثيرًا. ركب السيارة وحلق بالطائرة وقبل ذلك بقليل اكتشف الكهرباء ثم تحدث عبر العالم بالهاتف، وأطلق صواريخه أيضًا عبر القارات. ذات مرة قال أحد الكتاب الحانقين على ساغان لنازك: وما دخل عارضة أزياء سابقة بالأدب؟ من أنت لتطلقي الأحكام. قالت له بكل ثقة: قارئة، أنا قارئة.

* * *

ما أصعب ذلك الكلام على كمال وهو يسمع نازك:

"يجنني هؤلاء الفرنسيون لأنهم حولوا اللباس إلى فنّ، ونظروا إلى المرأة كأنها لوحة بينما هنالك أمم كثيرة ما زالت ترى المرأة عورة وحرمة و...". تصمت أخيرًا وهي ترى النار المشتعلة بعيني كمال.

نازك تقول ذلك غير عابئة بآراء كمال بهذا الشأن، كانت تعيش

محاولات حقيقية على أمل أن تنجح بزحزحة قناعاته ولو قليلًا.

وعندما تغادر منزلها غاضبة مع حقيبة الخصام، تقول لها العمة شاهي التي عاشت أربعين عامًا مع الرجل الذي أحبته منذ كانت في الخامسة عشرة من عمرها:

- (إن أجمل رداء يمكن أن تلبسه المرأة هو ذراع الرجل الذي تحب. لكنني هنا من أجل اللواتي لم تنعمن بذلك). العمة تردد تلك العبارة على مسامع نازك التي تحفظها عن ظهر قلب وهي التي رأتها بعينيها محفورة على مدخل دارة إيف سان لوران الذي تعشقه... ثم تضيف بهدوء وبلهجة مؤكدة:

- ليس سهلًا أن تحصلي على رجل تحبينه بحيث تكون ذراعه أهم وأجمل من كل حرير الأرض.

كل النساء يلهثن وراء اقتناء الثياب الغالية، والماراكات الفاخرة، وكل تلك الأكسسوارات التي تروج لها الدعايات وراء لافتة لتزدادي جمالًا سيدتي ولمزيد من التألق، وللكثير من الجاذبية). لكن ضميره المهني لم يسمح له بترويج تصاميمه عبر لافتة تقول إنك ستكونين أسعد سيدتي لو ارتديت ثيابًا من تصاميمي.

قدم كل ذلك الجمال وفي الوقت نفسه قال الحقيقة... ونبّه النساء إلى أن كل ثيابه الفاخرة، وتصميماته الرائعة، وأقمشته الباذخة لن تضيف لك شيئًا إذا ما فقدت ذراع الرجل الذي تحبين، وأنه موجود لأجل النساء اللواتي لم يحصلن على الحب.

ما أفظعها من فلسفة يا سيد لوران! وما أصعبها من حقيقة

مروعـة! تقريبًـا معظم نسـاء العالم يرفضن الاسـتماع لها، ويعشـن حياتهن لأجل اللهاث وراء بريق كاذب.

نازك كانت تعرف أن لوران لم يقل عبارته تلك إلا بعد رحلة طويلة في مجال التعامل مع النساء النجمات منهن والبالغات الثراء. هو الذي عرف عن كثب حكايا نساء لم تفلح أزياؤه في حقن دموع امرأة.

كل مصممـي الأزيـاء يعرفـون أن القماش لـن يغير من قدرك سيدتي.

* * *

أهـم مواهـب نـازك كما كان يرى مجيب شـان، جرأتها بقول آرائهـا، دون أن تحسـب حسـابًا لمـا يمكـن أن يُقال عنها: "لسـت وحـدي مـن تهـوى الصنف الكلاسـيكي مـن الرجـال. أمثال ريت باتلر، بطل ذهب مع الريح أو مستر دارسي بطل (كبرياء وتحامل). لست وحدي من أحبهم. أولئك الوسيمون، العاصفون، الموهوبون بقنص قلوب النساء، مرة واحدة وللأبد... لست وحدي من أريده باحثًا عن التي ترضي غروره يتماشى حسنها مع وسامته الممزوجة بالكبريـاء الخالـص... رجـل يكره (البين البين) والحلول الوسـط، فتكـون الأشـياء بالنسـبة لـه أو لا تكـون. يصوم إلى أن يشـاهد ما يريده".

كان الحديث يدور حول الروايات التي ذكرتها إحدى الصحف الفرنسية ضمن قائمة الروايات الأكثر مبيعًا وقراءة وتحديدًا من قبل

النساء. القائمة جاءت على النحو الآتي: مرتفعات وذرينغ، لإميلي برونتي - كبرياء وتحامل لجين أوستن - روميو وجولييت لشكسبير - وجين أير لشارلوت برونتي - ذهب مع الريح لمارغريت ميتشل - ربيكا لدافني دوموربير - دكتور جيفاغو لبوريس باسترناك - عشيق الليدي تشاترلي لدي إتش لورانس. نازك، تؤكد بجرأتها المعتادة، مثيرة حنق إحدى الكاتبات تجلس ضمن مجموعة كبيرة من الفنانين والمخرجين المسرحيين:

- النساء يقرأن هذا الطراز من الروايات لأنهن يبحثن بين دفتي «كتاب» عن رجل وسيم يحلّق بها عاليًا مثل مستر دارسي بطل كبرياء وتحامل ويفضلنه على الرجل العصري. وبعضهن يقرأن هذه الروايات للشعور بحالة نفسية أفضل وتعويض عن غياب الرومانسية في حياتهن.

كما أن "موت أحد البطلين" ميزة تجميع بين كل الروايات المشهورة، أنه للموت فتنة من نوع خاص والبشر مولعون بالنهايات التي لا تقبل بالتسويات أو المساومات.

مجيب شان يوافقها معجبًا برأي شريكته الواضح:

- هكذا يفكر الرومانسيون... قال مجيب شان.

- أنت أكبر رومانسي يا مجيب شان... يعلق أحد الجالسين.

- أكون كذلك عندما تكون جواري امرأة جميلة.

ربما نازك وحدها سمعت ذات مرة البوح الحزين من مجيب شان عن امرأة حياته أولغا شكلوفسكي،

امرأة روسية قطنت باريس وهي في الثلاثين من عمرها

أخـذت ترتـاد المجتمـع الباريسـي، تخالـط الفنانيـن والصحفاييـن والكتاب. كانت مثلًا في الأناقة والكياسـة والذكاء والثقة بالنفس، مغرمة بالسـفر والترحال، تقضي غالبية وقتها موزعًا بين القطارات والسفن...

رسـمها الفنان النمسـوي كوكوشكا، وكانت إذا قصت شعرها وجعدت بضع خصل من الأمام، قلدتها باقي النساء...

كان مجيب شان في السادسة والعشرين من عمره عندما تعرف إليها، لم يكن فقيرًا ولا ثريًّا، لكنه أغرم بها مذ رآها ذات مرة ثملة تضحك بانفلات في أحد البارات المطلة على السين.

وقتها احتار بوصف مشاعره لنازك وهو يستذكر مشاعر عاشها قبل ربع قرن: «ربما أغرمت بها لأني حين رأيتها لأول مرة كانت تضحك، فيما أنا القادم من قرية نائية من إيران حيث السواد يلف نساء عائلتي، النساء هناك لا يضحكن، الضحك عيب، والبكاء حق، تربيت في كنف نساء كان البكاء حقهن الوحيد المتاح، أمي رُجمت في ساحة القرية بعد أن اتهمت بالزنا، كنت صغيرًا، لكن صغري لم يمنع ذاكرتي من التقاط بضع صور متلصصة عن بعد، لحشـر من البشر يقذفون بالحجارة شيئًا مسربلًا بالأسود، لم يكن ذلك الشيء إلا أمـي، تلـك كانـت آخر مرة رأيتهـا فيها. بعدها مرت الأيام وأنا محاط برعاية اثنتين من عماتي. لم أر وجه امرأة حولي إلا حزينًا...

أتعرفين الآن لماذا أكره اللون الأسود وأعشق اللون الأحمر؟ ولماذا وقعت بغرام امرأة صارخة البياض، وتضحك بجنون السكر.

راقبتهـا وهـي تضحك بلا مبـالاة غريبة، كأنها وحدها خلقت

في هذا العالم، لحقت بها وعرفت أنها تسكن في شارع جينيجو أوريفانفيل، لم يكن صعبًا أن أتعرف إلى امرأة جاءت إلى باريس لأجل الحب والرجال، فهي ثرية ولا تحتاج لأن ينعم عليها رجل بذلك.

نازك تسأل بهدوء واهتمام عميق:

- هل أحبتك؟

- لا عيب فيها إلا أنها لم تحببني، حتى لو اعتقدت ذلك... هههه، كنت كلبها... لو تعرفين كم عذبتني.

ربما لم تقصد ذلك أبدًا فهي لم تكن امرأة تريد أن تعذب أحدًا حولها، كل ما في الأمر أنها تريد أن تكون سعيدة فقط.

- ما الذي عذبك بالضبط؟!

- الغيرة يا نازيك، الغيرة من كل شيء، لا يمكن امرأة أن تتصور ذلّ رجل يتحرى ماضي أنثاه، ماذا فاته وماذا يمكن أن يفوته، ذات مرة رميت لها قبعتها المفضلة في السين لأني ظننت أنها هدية من رجل ما... كنت أغار حتى من الثياب التي ترتديها... الرجل عندما يغرم يعتقد أن المرأة تخونه حتى تفضيلها كلبها أو قطتها...

- أين هي الآن؟!

- ماتت في حادث سيارة، نهاية غبية لامرأة ذكية... ما أحمق الطرق وهي تفتك بامرأة مثلها! عندما ماتت كنا قد افترقنا قبل سنوات، كانت في السادسة والأربعين من عمرها، هرعت إلى مكان الحادث فورًا، لم تكن هي التي تقود، لكنه السائق الذي لم ينتبه

لأحد المنعطفات إلا متأخرًا، لا أنسى جمالها وهي ميتة، يمكن الجثث أيضًا أن تكون جميلة...

* * *

في نهاية ذلك الصيف، سبحت نازك بالبكيني الأحمر على غالبية بلاجات الإسكندرية الممتدة من المعمورة إلى العجمي. والتي حملت أسماء ملكات: ايزيس، نفرتاري، سميراميس.

وفي مطعم "دنيس" بالإسكندرية كانت سعيدة عندما التقطت صورة تذكارية مع عبدالحليم حافظ، تحديدًا لأنها يومها كانت قد سرحت شعرها تسريحة "ماري أنطوانيت" موضة ذلك الموسم.

ولم توارِ ولعها برقصة التوسيت وكل ما يصدره غيتار أو أورغ كهربائي وكل النغمات المتنافرة التي انتشرت بين الهيبز ليرقصوا على إيقاعها، ويخرجوا من داخلهم كل الرفض الدفين... رقصات حملت أسماء غريبة ليس لها معنى كرقصة الجرك والسيكولوجي والبيكلوري. ولم تعد للرقص خطوات ثابتة أصبح تلقائيًا عفويًا، وضاعت معالم الرقص الأصيل وتفشت الحركات البهلوانية، وأصبح كل راقص في واد، المهم إطلاق الانفعالات لإعادة التوازن. ونازك تعلق قائلة: وهو المطلوب...

في فندق «وندسور» بالإسكندرية شاركت بمسابقة الميني جوب والشورت وملكة الأناقة وملكة جمال العيون، وصاحبة أجمل بيجاما، وأجمل تسريحة، وأجمل قوام، وخرجت بجائزة

«الشورت الساخن»... بعد أن أذهلت الحضور بشورت مزين بريش نعام أفريقي فوق قماش شفاف، فحسمت المنافسة لصالحها دون منافسة تذكر.

تلك السنة في باريس عقدت 18 سيدة يملكن أكبر بيوتات الأزياء في باريس اجتماعًا لمناقشة مستقبل الميني جوب والميكروجوب وطالبن بأن يبقيا، وأن تعمل كل دولة على تطويرهما بحيث يتناسبان مع الذوق العام في كل بلد.

وفي روما قصدت حلاق «جينا لولو بريجيدا» وأشهر حلاق للسيدات في العالم «فيدل ساسون» بعد أن قرأت عنه عنوانًا صحافيًا يقول: (إذا اهتز المقص في يده وهو يقوم بتسريحة جديدة يهتز المقص في أيدي الجميع) بكت بكاء مرًّا في ذلك المساء بعد أن وقفت أمام مرآتها في الفندق واجتاحتها نوبة ندم كبيرة بعد أن أقنعها ساسون بقص شعرها قصيرًا جدًّا. مجيب شان أكد لها أن الرجل عندما يحب لن يكترث لطول شعر امرأته أو قصره.

رغم متابعتها اليومية للصحف وتحديدًا لآخر أخبار "تمرد" النساء كما كانت تحب تسميته بدلًا من كلمة «تحرر» لأن التحرر برأيها غير متاح لأي من البشر. رغم اكتئابها بشأن تحرر المرأة في بلدها، بحماسة قرأت الخبر الذي يقول إن هواري بومدين استعرض الكتيبة الأولى من ضابطات الاحتياط التي تم تخرجها من بين طالبات الجامعة الجزائرية، وإحدى الطالبات تحرز 13 ساعة طيران على طائرة «ميغ» ضمن معسكرات التدريب.

وقررت نازك، أن الهند بلد متخلف، طالما تثور على الأفلام

الأميركية بسبب موضة الجونلات القصيرة التي تسودها.

* * *

خلال شهر مايو من عام 1968 كانت في باريس ورأت الطلبة أمام مصنع "رينو" بعد أن غادروا مبنى السوربون ووصلوا المصانع التي يحتلها العمال، وأصبح شعار الجميع: "ضرورة التغيير". كانت تلك "حركة الطلاب" التي اكتسحت كل أوروبا والتي أعجبت بها بينما مجيب شان يقول باستحقار "فقاعات ستالينية... خلايا شيوعية"، ثم يقول لها شامتًا: "لنر كيف سيتصرف الجنرال ديغول الذي يعجبك" كانت مستمتعة بدوي قنابل المولتوف والمواد الحارقة والأعلام الحمراء وضجيج البلدوزرات التي كانت تزيل متاريسهم وهم يشنقون تمثالًا لأحد رجال البوليس. يطلقون ذقونهم مثل غيفارا، والحراسة مشددة على 19 جسرًا على طول نهر السين.

نازك أغرمت بتلك الحركة لأجل «السبب» الذي أشعلها: بدأت التظاهرات الطلابية عندما تصدى عدد من الطلبة في «أنتوني» المدينة الجامعية، لعدد من العمال كانوا يشيدون غرفة لسيدة تقوم بالمراقبة لمنع اختلاط الطلبة بالطالبات. وقامت قوات البوليس بحماية العمال لإنجاز تلك الغرفة رغم احتجاج الطلبة والطالبات...

رغم المتاريس التي ملأت الحي اللاتيني، ورغم تعاطفها مع المتطرفين من اليسار والفوضويين والتروتسكيين وأنصار «تشي غيفارا» وكل الرافضين مع محبتها لديغول، فإن ذلك لم يمنع من

شرائها عددًا من المايوات الباهظة الكلفة.

وأعجبت بالممثلة الأميركية راكيل وولش في حوار لها تقول فيه: «إنني أجمل ألف مرة من صوفيا لورين... وعن الحب: هل أنت في حالة حب؟ طبعًا أكثر من واحد! وهل هذا ممكن؟! ممكن جدًّا واحد يحبه عقلي وواحد يهواه قلبي».

(أن نعيش دون وقت فراغ وأن نتمتع دون عوائق) أحد شعارات الهيبين، وجدته مفيدًا لتبرّر مرافقتها رجلًا ثريًّا دون زواج حقيقي. انتقت ما أرادته من شعاراتهم أو الأصح ما ناسبها مثل: «كونوا واقعيين واطلبوا المستحيل».

لم تشبع من الضحك من أسباب الطلاب لإعلان ثورتهم... أن الطالب لم يكن يستطيع أن يزور الطالبة التي يحبها في غرفتها في السكن الجامعي قبل مايو 68! وما كان يحق للمرأة أن تفتح حسابًا في البنك إلا بعد موافقة خطيّة من زوجها! لكنها انزعجت عندما سمعت بعض أولئك الشباب الغاضبين وهم يؤكدون أن: مدام ديغول «تانت إيفون» - كما كان يدعوها الفرنسيون - كانت تقول إنه ينبغي على البنت أن تعود إلى بيتها قبل الثامنة مساء!

«هههه، هجرت الشام حتى لا أضطر للعودة إلى البيت قبل الثامنة». مجيب شان دفع إليها بالصحيفة وهي لم تزل نائمة في فراشها لتقرأ الصحف وهي تحكي عن جان بول سارتر عندما قبضت الشرطة عليه أثناء الأحداث في شارع سان جيرمن دوبري وأدخلوه إلى سيارة الشرطة لكن ديغول المغرمة به نازك، أمر فورًا بإطلاق سراحه قائلًا: «لا أحد يسجن فولتير». استغرب مجيب

شان من أن نازك لم تكن تعرف من هو فولتير. لكنها كانت معجبة بكل ما يجري حولها. ولم تشبع من مراقبة الهبيين على قارعة الطرق التي يحتلها أولئك الشبان بذقونهم الطليقة والأرجل الحافية البالغة الوساخة مع بنطلونات تصعب معرفة ألوانها الحقيقية بسبب ما تراكم عليها من أوساخ. فقط بدا واضحًا أن البنطلونات موديل «شالستون» والقمصان قبيحة ملونة بالفوشيا والأصفر والأخضر. بدا ذلك مضحكًا لها ومنفرًا.

مارك، تحمل ضحكة نازك المجلجلة وهي تشير إليه بذهول وتصيح قائلة لمن بدوا أنهم زملاؤه أو أصدقاؤه :"مارك. هههه" لم يكن ليتوقع شيئًا آخر من نازك "الشريرة" كما كان دائمًا ينعتها، حمل عصاه باستحياء ورافقها وهو يشرح لها أنها العصاة ذاتها التي حملها خلال مواجهة جرت في الحي اللاتيني حيث "اليمينيون" أبناء العائلات الثرية الذين كانوا يدرسون في معهد العلوم السياسية في شارع "أسّاس" والذي لا تفصله عن السوربون معقل "اليساريين" إلا حديقة اللوكسمبورغ. كان مارك ضمن طلاب جامعة نانتير الذين اعتقلتهم الشرطة لأنهم تظاهروا ضد حرب فيتنام.

كانت تضحك من نفسها كيف سبق أن أحبت شابًا سخيفًا مثل مارك الذي روى لها تفاصيل ما عاشه مؤخرا من أحداث جعلته يصبح هبيًّا بامتياز. وأوضح لها أكثر ثورة الطلاب التي وصفها الكثيرون بـ «عقوق الأبناء» هم شباب جذبتهم فكرة «الضد». فرضوا الحق في الإجهاض، وحق الفتيات بتناول حبوب منع الحمل.

لـم تتوقـع أنهـا سـتحفظ بعض عبـارات أولئك الطلبـة دائمًا، وستكون ذريعتها في كل ما ترتكبه من مخالفات... في الحياة:

(- الحق في الحياة يُؤخذ ولا يُشحذ

- بسـبب الامتحانـات والأسـاتذة تبـدأ الوصوليـة منـذ سـن السادسة.

- انسوا ما تعلمتم واحلمو.

- كلمـا مارسـت الحب رغبت فـي القيام بثورة، وكلما قمت بثورة رغبت في ممارسة الحب.

- لنغلق جهاز التلفاز ونفتح أعيننا.

- هنا نمارس العفوية.

- ممنوع المنع.).

تمعنت كثيرًا بالحي اللاتيني بعد أن تردد على مسامعها على ألسنة الهيبيين: "بداخل كل إنسان حيّ لاتيني نائم...".

مدام ديغول، كانت ترفض أن تسـتقبل على العشـاء أو الغداء شـخصية مطلّقة. الاسـتثناء الوحيد الذي غضّت عنه الطرف، كان الأديـب والمستشـار الثقافي لزوجهـا، "أندريه مالرو". نازك تقاطع مارك ومن بين دخان سيجارتها تقول شيئًا يفاجئ مارك:

- ثورة تشبه الحب..

- كيف؟

- حَدَثَت بغتة...

يظل مارك صامتًا وتتابع نازك:

فقـط لـو أنهـم لا يكرهـون الثلاجـات والغسـالات وآلات

التسـجيل والسـيارات والطائـرات... لا أتفـق معهم فـي هذا... لم يخطر على بال مارك أن نازك سوف تستغل عصيانًا عامًّا في وجه الزمن والتاريخ لتمارس هواية لم يتوقع أنها ستجرؤ وتفصح عنها. بكثير من التردد والممانعة، أعطاها عنوان غابة في إحدى ضواحي باريس، فيها يعيش حوالى ألف هبيّ، عراة تمامًا، ويسـكنون بضع حافلات قديمة عاطلة من العمل... مجيب شان لم يفعلها قط ولم يتعرَّ كما فعلت نازك كما خمّن، لم يسـألها مطلقًا عن ذلك. كان يخشى أن تحكي له ببساطة ودون أي إحساس بالذنب عن تجربتها تلـك. وخشـي أكثـر أن لا تجـد حرجًا بالاعتـراف له بما يمكن أن تكـون قـد فعلتـه في أحضان الغابة. فضّل أن يعيش حالة، من عدم الحسـم، تجاه ذلك السـؤال... فقط كانت المسـألة شكوكًا بعد أن عثر على عنوان غابة الهبيين في حقيبة يد نازك المصنوعة من جلد التمساح...

(لا يوجد سم أحلى من الحب
ولا مرض أكثر إنعاشًا من الحب)

بيتر رسل

دولت خانم، كانت صديقتها الوحيدة في دمشق، امرأة شكلت سيرتها الشخصية دون أدنى مواربة أو هروب، اعترفت بإخفاقها في حياتها العاطفية، وأنجزت معاملة طلاقها الرسمية، ثم حزمت حقيبتها ورحلت في رحلة نادرًا ما يقررها أحد.

رحلة صوب اكتشاف الذات. دولت قررت أن تطلق زوجها، بعد أن قضت ليلة بكاء كاملة في الحمام، وتيقنت بأنه ما من مهرب من حقيقة استحالة استمرار حياتها الزوجية.

هكذا، أتى إصرارها على» الهجران»، كانت تريد أن تهجر كل شيء، وتقذف بكامل استقرارها صوب مهملاتها فتترك عملها، وتشد الرحال صوب الخارج.

خصصت عامًا كاملًا لأجل اكتشاف ذاتها. ذهبت الى المغرب، وهناك تعرفت إلى رجل أحبته وتزوجته وعادت معه إلى دمشق لتؤسس لمجلة نسائية.

مع مقالاتها الأولى بدأت تعاني من ردود الفعل الساخطة.

نقاد كثر هاجموا مقالاتها، لأنها بنظرهم تشجع النساء على الطلاق وهجر منازل الزوجية.

كانت تكتب مقالاتها لتروج لفكرة أنه دائمًا هنالك نقطة انطلاق جديدة إذا ما قررنا ذلك أو لحظة انعطاف قصوى، أو أننا بلحظة قررنا مغادرة درب ظنناه دربنا القدري في الحياة، وثمة ما حصل جعلها تنسف كل شيء وتبدأ من جديد.

ربما من الأشياء الجذابة التي طرحتها دولت خانم هي هذه النقطة بالتحديد: ابتكار بداية جديدة وإغلاق أبواب قديمة إلى

الأبـد. لحظـة لا مسـاومة بعدهـا أو مجاملـة. بعيـن فولاذيـة رأت تعاستها وإخفاقها الزوجي والعاطفي.

فدولـت تغـادر وحيـدة وهـذه نقطة أخرى فحيـن نكون برفقة الآخرين سيحدث التشويش لا محالة. إذًا، لا للرفقة ولا للأصدقاء عقب أزمة محض ذاتية وثمة أمل وحيد لا بد من تحقيقه: هو أن نقرأ أنفسنا بطريقة صحيحة.

طبعًا، هذه الوصفة السحرية ليست حكرًا على ضحايا الطلاق والحب. أزمات كثيرة بات العالم المادي الجيد يفرضها تستدعي وقفات منفردة مع الذات.

اقترحت أن نداوي جراحنا بفنية عالية، جراحنا تستحق الكثير من الفن لتجميلها وإعادة إدماجها مع خريطتنا الروحية، أي ما يشبه إعادة تأهيل خاصة جدا بالذات، حالة سرية للغاية تنطوي على تأمل ضروري لأنحاء مختلفة متنوعة من حياتنا.

فكرة مقالاتها تقوم على السفر بغاية الابتعاد عن الأحزان.

جـرأة لا مثيـل لها حين تفارق حزنك وتركب حافلة توصلك إلى محطة لم تحزرها يومًا. وربما لم تحدسها قط، أو تخطر لك على بال.

كانت تقول:

- اسـمحوا لحافلات النسـيان أن تأخذكم بعيدًا عن جغرافيا أحزانكم وكل ما يكاد يخنق أحلامكم.

نازك كانت قد سبقت دولت في تنفيذ فكرة السفر يوم غادرت دمشق ولم تعد إليها إلا بعد ما يقارب 20 عامًا.

مبكرا نضجت في مخّها فكرة السفر بمعناه الحقيقي: الابتعاد والبعد والانفلات من القيود الاجتماعية الهرب من الأهل، من إشارات التوقف وضجيج الأقاويل وإلحاح متسولي النمائم من الأقارب، وزحمة ثرثرات الجيران.

صداقة نازك لدولت، كانت سبباً لأول شجار حقيقي جرى بين الزوجين، كمال لم يكن يحبها، ودولت وحدها جاءت وفق مزاج نازك في تكوين صداقاتها.

كمال مع كل يوم يمر يكره نازك بقدر ما يحبها، كانت كلما ارتدت ثيابها للخروج من المنزل حتى لشراء علبة سجائر كانت تبدو أنها على أهبة الإفلات منه... كلما خرجت فارقته إلى الأبد.

* * *

للحرية طعم، نكهة، ولون...

أول مرة عرفت فيها طعم الحرية الحقيقية كانت عندما غادرت السوربون نهائيًّا، إلى شقة في شارع شاتو.

لم تكن وحدها قد تورطت في دراسة شيء لم تحبه، أيضًا الثنائي «تو» زميلاها وصديقاها المقربان منها وارن وتوم، كل السوربون كانت تعرف أنهما مثليا الجنس.

وفاة أبيها المفاجئة إثر سكتة قلبية شجعتها على تلك الخطوة، الإنسان الوحيد الذي يهمها ما يمكن أن يكون رأيه بها، مات. إذًا، لا مبررات لتحيا كما يريدها الآخرون أن تفعل.

توم كان يجمع مصروفه من التنقل سرًّا في سكن البنات يقص

شعورهن ويقلم أظافرهن. ووارن كان يمتلك موهبة فريدة استطاع ان يستغلها أفضل استغلال، موهبته كانت: الشمّ، يمتلك حاسة شمّ فظيعة. وارن الذي جال على أكثر من ثلاثمئة مؤسسة لصناعة العطور موجودة في باريس حتى عثر على من يقدر موهبته، غادر عندما تأكد أن موهبته ستأخذ طريقها، ولن يحتاج للشهادات العالية وكل معاطر باريس تعرف أن هذا العمل يتطلب موهبة وبراهينَ دامغة على الذوق، وهؤلاء ليسوا كثرًا.

حالما عثر وارن على عمل في أحد مخابر العطر في باريس استأجر شقة واسعة، وانتقل الأصدقاء الثلاثة إليها مودعين حياة الدراسة.

كانت تضحك كلما تذكرت مهنة وارن كان يعمل «أنفًا» يشمّ الروائح ويفاضل بينها، فيقبض على ذلك نقودًا، فعلًا باريس مدينة العجائب لا يمكن مدينة أخرى أن توفر المال لأحد، لمجرد أنه يمتلك حاسة شمّ متميزة.

ربما وحدهما وارن وتوم كانا يعرفان سرّ هجران نازك دراستها، وحلمها أن تكون عارضة أزياء.

إنه شاب وسيم للغاية اسمه «مارك» هجرها لأجل عارضة بلغارية شعرها أحمر طويل...

يومها قال لها توم: أنت أكثر جمالًا منها، لكنك لا تقلمين أظافرك ولاترتدين ثيابًا مثل ثيابها، إنه فرق سخيف وبسيط، لكنه أساسي لبعض الرجال، ومارك من أولئك الرجال.

عطرها الذي ظل يرافقها منذ وصولها إلى باريس، استبدلته

برائحة الياسمين الذي تحبه ويذكرها بمدينتها الأم، ونصحها وارن باختيار رائحة خام موحدة كأن تكون الياسمين او الليمون او النعناع، ريثما تتمكن من اختيار عطرها الخاص. في البداية لم تُقم وزنًا لمسألة اختيار العطر. لكن وارن كان كثيرًا ما يحكم على النساء من حوله تبعًا لروائحهن وعطورهن... يكفي أن تمر امرأة بجواره فيطلق حكمه دون تردد على حالتها النفسية... امرأة لا تلقي بالًا لعطرها، فإنها متهالكة ومشوشة وغير ممكنة التفسير.

* * *

"حبيبتي... ينبغي أن تمرّي كما لو أني لا أبصرك لا أحسك لا أسمعك لا أشمك، مُرّي بيّ بخطى شيطان، بخطى ريح بحرية... حتى يفوتني الإمساك بك".

كمال بيك، لم يكن شاعرًا، لكنه لأجل نازك كان يقول أحيانًا بعض الكلام الجميل جدًّا بالنسبة لرجل سياسي الميول.

نازك عاشت قصتها الجديدة بمنطق من يريد أن يرقص فوق الكل، أن يكون في كل مكان: هنا وهناك وأبعد...

كمال لم يغفر لها قط ماضيها الملون والذي تعرفه كل دمشق... يقول لها مذكرًا:

- لم تسلكي قط الطرق المستقيمة...

- نتبع كل الطرق المتعرجة لنعثر على الطريق المستقيم، تجيبه دون تردد. وتتابع:

- نمارس كل أشكال التكور والاعوجاج والتثني، لنستطيع أن ننهض بقاماتنا كاملة.

وحين تشرب النبيذ مساء، يأخذ منها الكأس ويرشقها على الحائط فتعاتبه قائلة:

- نمرّ بكل الخمارات لنصحو...

«الحب بلا قلب" تقول لنفسها وهي تستغرب من نفسها كيف يمكن أن تحب رجلًا يحمل عقلًا متحجرًا كعقل كمال.

ذات مرة دعتهم إلى تكوين حزب باسم «المطيبين» حين رأت استغراب من حولها مما سمته مزحة، شرحت لهم:

- العرب هم أول من عتّق العطر وعرفوا أنه مثل الخمر كلما عتق طاب... وميزوا بين عطور الرجال وعطور النساء. وقبل زمن طويل من ذلك اليوم الذي أرسل فيه هارون الرشيد العطر إلى شارلمان دخل العطر عالم السياسة وقبل أن يعرف العالم حلف وارسوا وحلف شمال الأطلسي... عرفت الجزيرة العربية حلف المطّيبين، ألا تذكرونه ذلك الحلف الذي عقده بنو عبد مناف وثلاثة أقوام غيرهم لانتزاع ما في يدي بني عبد الدار من الحجابة والرفادة والسقاية في الكعبة، وأخرج بنو عبد مناف حفنة مملوءة طيبًا. فوضعوها لأحلافهم في المسجد عند الكعبة، فغمس القوم أيديهم فيها وتعاقدوا. ثم مسحوا الكعبة بالأيدي المطيبة توكيدًا فسموا المطيبين. هات لي حزبًا يغمس يديه بالعطر لا بالدم وسأنتسب فورًا... يا كمال بيك.

* * *

الشجعان تخصهم الحياة بعداوتها، هكذا تبرر لنازك، ما تسميه حظًّا سيئًا، بزواجها من كمال.

تعلق لوحة جديدة على أحد جدران منزلها: لوحة لفريدا كاهلوا، ترتدي بذلة رجالية جالسة على كرسي خشبي بسيط يشبه تلك الكراسي في المقاهي الشعبية حيث لا يرتادها غير الرجال، وبين يديها المستكينتين يظهر مقص أنجز مهمته للتو وخصل الشعر السوداء المتناثرة في فضاء وأرضية اللوحة تدل على ما اقترفه المقص بيدي صاحبته التي تبدو لوهلة «متفرجة» فقط، في حين أنها أكملت تمردها على الرجال وعصيانها الذي كان سلاحه مقصًّا فقط. ومن عينيها ترمي بألف حجة وحجة لتبرير سر قرارها النهائي بالتخلص من شعرها الأسود الطويل المغوي وتقول بوضوح: لا للضفائر، لا للإغواءات، لا يعنيها أن تنال إعجاب رجل بسبب ضفائرها.

نظرة عينيها تستدر التضامن معها وتبعث على الإجلال لقرارها، مع كثير من الاستبداد الأنثوي المتجذر في عينيها، وحس مرهف جنوني واثق تتحدى فيه كل من ينظر إلى اللوحة. وثمة نص يعلو اللوحة وتحته نوتة موسيقية لأغنية شعبية مكسيكية تقول كلماتها: «انظري: إذا كنت قد أحببتك، فإن ذلك كان لشعرك. أما الآن، فبشعرك القصير، لم أعد أحبك».

علقت نازك تلك اللوحة لأنها لم تكن بشجاعة رسامتها المفضلة، فهي لم تجرؤ على أن تقص شعرها وهي على أبواب الأربعين، وفكرت بصراحة مع نفسها: «كمال سيظل يحبني حتى

لو قصصت شعري لكن، ماذا عن الرجال الآخرين؟».

كمال لم يخطر له أن نازك يمكن أن تفكر برجل آخر، بينما هي تفكر بآخرين.

* * *

الحقيقة المرة بالنسبة لكل النساء أنهن لسن سواء، فبعضهن خلقن ليلمسن الحجر فتضيء مصابيح العالم.

أكثرهن وجعًا هن اللواتي يحترفن صنع التناقضات. فالتناقض ليس أمرًا متاحًا للجميع، وتحديدًا النساء الجميلات وحدهن يمكن أن ينزفن الحرارة من شفاههن ويمكن الشفاه ذاتها أن تسرّب الصقيع، وأن تستمتع بتفكيك طمأنينة من حولهن... وتُبقّع بالشك أيام الجميع حولها. تخلف الرجال وراءها عالقين في أرضها الصمغية، لا يمكن أن تكون أحدًا عابرًا... فتتغلغل كريح عاصفة لا تعرف الاكتفاء.

هكذا، كانت نازك بالنسبة لكمال عقب أشهر قليلة من الزواج.

منعها من ارتداء أي من فساتينها الحمراء الصارخة، طرد كلبها وقطتها قائلًا إن في ذلك نجاسة للمنزل، وذات مرة عادت وهي ترتدي ثوبًا بلون كحلي يغطي ركبتيها كانت ارتدته بناء على رغبته... وجدته قد حرق كامل أرشيفها من الصور التي تحتفظ بها. تلك الصور التي كانت بينها لحظات لا يمكن أن تعود، تحديدًا صورتها الأولى في عالم الأزياء. كان ذلك بعد أن حظيت بأول عقد وقعته مع مجلة مرموقة مختصة بالأزياء، يومها رافقت

فريقًا من المصورين مع دزينة من العارضات إلى أحد قصور آل بوربون في الريف الفرنسي حيث قضين أوقاتهن يلهين في القصر ويتزحلقن على الدرابزونات النحاسية كالأطفال وحين حاصرتهن عاصفة ثلجية لعبن لعبة الغميضة مع فريق المصورين، وهناك وعلى العتمة وقعت بين ذراعي روجيه المصور الروسي الذي أصبح حبيبها لمدة عامين قبل أن تخطط للاقتران بمجيب شان. هناك كانت صورتها الأولى على سرير واسع مضرج بالقرمز وقد ارتدت الثوب الأول ثوبًا أبيض من الأورغانزا، هناك استلقت وفي حضنها قطة سوداء صغيرة لم تفارقها بعد ذلك إلى أن جاء يوم دهستها فيه وسيلة بوسيس دون أن تنتبه وهي تغادر كاراج قصر سان دونيس غاضبة عمياء من الغيرة.

يومها علق مجيب شان:

- النساء لايصبن بالعمى بسبب الحب إنما بسبب الغيرة من امرأة أخرى.

حين تحتار بين ثوبين: واحد بلون أحمر وآخر بلون أخضر، تسأل مجيب شان فيجيبها:

- الناس يشعرون بأن القطار الأحمر أكثر سرعة من القطار الأخضر... رغم تساوي السرعتين.

كانت تبرر هوسه باللون الأحمر لانتمائه إلى برج الثور. منذ عرفته امتلأت خزانتها باللون الأحمر.

مجيب شان كان يعتبره لونًا يمدُّ يد العون للعشاق. ومهما

تباعد الزمان تظل نازك تستذكر كلماته حول هذا اللون:

- لون يشبه النساء، له متناقضاته، فإذا عشقنا أحدًا، ارتدينا الأحمر أو قدمنا له وردًا أحمر، وإذا حدث وغضبنا منه وخاصمناه، نريه العين الحمرا!

الأجواء الطلابية في باريس كانت تراه لون كاسترو وغيفارا، لون البلاشفة، ومنظمة (بادر - ماينهوف) الألمانية...

تنازعته دور الأزياء وجعلته موضة شتاء قارس عندما تناقلت الصحف أن عالمًا دنماركيًّا استعمله في معالجة الجدري. وأنه لون ينبّه الكبد وينشط الدورة الدموية ويعد محرضًا جنسيًّاً بحتًا... يدفع الاشتهاء لدى معظم الرجال لأقصى درجاتة... مجيب شان كان يضحك قائلًا: هههه، نصحتكم بهذا اللون قبل الطبيب الدنماركي.

ربما من المنطقي أن تعد العواطف ملوّنة! لون الحب أحمر، والخيانة صفراء كذلك الكره والحسد. ولون التصوف أخضر، والإخلاص أبيض، والأسود لون أزلي للسيادة. مجيب شان كان يبرر اختيار نازك الأقمشة المعرّقة بألوان عدة بكونها أنثى متناقضة تحب خلط الأوراق...

* * *

في ما سلف كان لدى العرب في الجاهلية تعبير: (المرأة الحرة) هنا ذكاء قوم يقدرون قيمة المرأة الحرة لأنهم يعلمون أن المرأة التي تُمنح قيمتها اللائقة، تأبى أن تفعل ما تفعله الجواري؟ ويعلمون أنه إذا أرادت امرأة تقديم نفسها... فلن تمنعها أمتار من القماش تسربل جسدها!

الخلافات تشتد على أوجها بين نازك وكمال حالما تبدأ انتشال ما كان يعجبها في العصر الجاهلي الذي كانت معجبه إلى حد كبير. كانت تحفظ أسماء أكثر من ثلاثمئة صنم كان يعبدها العرب في الجاهلية.

كانت تتعمد إغاظته حينما تذكر أن "سترابون" رحالة روماني مرّ بمكة ورأى امرأة تقوم بترميم منزلها الذي خربه سيل قوي بمساعدة من زوجيها... كانت تطرح فكرة تعدد الأزواج لتغيظه وتمازحه في الوقت نفسه، لكن كمال كان مع الوقت ينقم عليها، لأنه لم يكن قادرًا على تغيير شيء في قناعاتها.

* * *

- هنالك كتّاب لا يستطيعون الابتعاد عن ذواتهم لهذا، تكتب بوفوار روايات مليئة ببطلات يشبهنها.

تقول نازك وتبدأ موجة من النقاشات الحادة حول أصالة أو رداءة بطلات سيمون دو بوفوار.

بينما كانت نازك معجبة بروايات إيان فليمينغ، الصحافي والجاسوس الشهير حين حدث وانسحب من حياة الجاسوسية واستقر في منزل جميل في جامايكا وعاش حياة مترعة بالنساء والسجائر والكحول. وحين كتب في الأدب أعاد إنتاج نفسه متأثرًا بثراء حياته وتلونها في مجالي الصحافة والجاسوسية، مخترعًا شخصية "جيمس بوند" الشهيرة!

نازك تخلت مبكرًا عن حلمها في أن تصبح كاتبة... لم تشعر

مجيب شان كان يبرر ظاهرة "الأديبات" بطريقة ذكورية فجة، لكنها كانت تُضحك نازك، برأيه أن المرأة بطبعها تفضل أن تفقأ عينها على أن ترى فتورًا في عيني من تحب لهذا بعض النساء يفقأن عيوننا بما يكتبنه من نصوص رديئة... هههه، لا تفسير غير ذلك في أن تكتب المرأة شعرًا أو روايات...

كل ذلك كان يذكرها بمشاعرها يوم رأت "مارك" مع العارضة البلغارية، فكرت بفقء عينيها على أن تراه معها، لكن ما لا يعرفه أحد أنها فكرت بالانتحار.

كانت محاولة فاشلة وغير صادقة... كما وصفها مجيب شان وهو يقهقه ويعلق قائلًا: لا، مثلك لا تفعل ذلك، يمكن أن تفكري بالانتحار هههه... لكن، لن تفكري بالموت...

جاء تفكيرها بالانتحار بعد أن سخرت منها زميلاتها عندما قرأت بضع صفحات من رواية فكرت أن تكتبها انتقامًا من مارك.

استغلت غياب زميلتها في السكن وقررت الانتحار.

يومها فكرت بالانتحار نومًا. تناولت قرصًا ثم آخر، كانت تنتظر الموت بعد كل قرص وعندما لم يتجاوز عدد الأقراص أربعة عشر نامت نومًا عميقًا وطويلًا وحين استيقظت كانت قد شفيت من الرغبة بالموت ومنذ ذلك اليوم كانت تداوي أزماتها النفسية بالنوم تنام عميقًا وطويلًا، وتنهض وقد مرت شهوة الموت.

* * *

- هل من وصفة تعيننا على التوغل أكثر في دغل كذب الحياة؟

لن نأخذ كفايتنا من الغيب مهما كانت نجمتنا سعيدة! كان يقول مجيب شان المغرم باستقبال العرافين حتى لو كان على يقين أنه لا يستقبل أكثر من دجال. وحين كانت تستنكر نازك ذلك يبرر لها بلا مبالاة:

- حتى لو كانوا كذبة فإنهم مسلون.

كان مجيب شان رغم أمواله الكثيرة يخاف من القدر، دون أن يعترف بذلك لكنه كان كثيرًا ما يردد:

- يحدث أن نظن أننا نرقص في ساحة فرحنا النهائي، فيما يكون القدر قد فتح أمام خطونا الراقص قاعة التراجيديا، ومهد لأكثر من مفاجأة!

ربما حين نملك الكثير ونقتني الثمين ونحب النفائس، تطول قائمة الأشياء التي يمكن أن نخسرها فقط لأجل الحظ؟

في صالات القصور البرجوازية كانت تنطلق الألسن بتبرير استضافة العرّافات بشكل دوري.

- تدهشنا الأسماء التي قد ترد ضمن قائمة المشاهير الذين كانوا متعلقين بالعرافة... يقول مجيب شان ليبدأ حديثًا يروج فيه للعرافات والعرافين.

- ربما الطغاة هم أكثر أولئك الذين يهابون القدر! تقول نازك.

- هتلر كان له عرافه الخاص "كارل برندلبرخت" يضيف أحد الحضور.

- وستالين كان لـه عرافـه أيضًاً هـو وولف مينغ، ضيف آخر يقول ذلك ويتابع:

- ومن بعده واظب على استشارته نيكيتا خروتشوف.

- وبرجينـف أيضًـاً لجـأ إلى أشـهر عرافة فـي العالم، العرافة العمياء "فانغا" التي استقبلت رؤساء وملوكًا وتنبأت بنبوءات أشبه بالمعجزات.

وتتوالى الآراء المؤكدة:

- ربمـا يجـب أن لا نسـتغرب تعلق الفرنسـيين بالكهانات... معظم رؤسـائهم اشـتهروا باللجوء لاستشـارات المبصرين. ديغول طـوال سـنوات منفـاه في إنكلتـرا قبل أن يدخل فرنسـا بعد معركة النورماندي التي أنهت الوجود النازي في فرنسا، كان يركن للعرافة جين ديكسون.

- الإسـكندر المقدونـي قصـد عرّافـة سـيوه قاطعًـاً صحـراء شاسـعة ليطمئـن علـى طموحـه... تقـول نـازك متواطئـة مع خطط زوجهـا مجيـب شـان... وحدهـا تعرف أن مجيب شـان الذي كان صادقًا بحبه لعالم الكهانة والعرافة، أيضًا كان يدس أولئك العرافين ويسهل الطريق لهم لدخول عوالم منافسية ويجعلهم يقولون لهم ما يريده هو أسلوب آخر يستخدمه الأثرياء للوصول إلى ما يريدون.

- وكليوباترا كانت مولعة بالسـحر وشـعائره يقال إنها مارسته بـذكاء نـادر. يحكـى أنهـا كانت تحيـط جيدها بطوق يبـدو للعيان أنـه مكـون من حبـات اللؤلؤ وببراعة كانت تغافـل الضيوف الذين تجالسهم وتسقط حبة منه في كأس الضيف الذي سرعان ما يدخل

في حالة من الخدر تجعله عبدًا بين يديها! ولأول مرة في التاريخ تدوّن دائرة الزودياك التي تضم الأبراج الاثني عشر في سقف قبة معبد دندرة، بفضل ولع كليوباترا بما يمكن أن تومئ إليه الأفلاك. حيث اعتادت تصديق النبوءات منذ مطلع شبابها حيث قالت لها متنبئة إنها ستعبر البحر وتحكم الشرق والغرب! مجيب شان لا ينسى أبدًا أن يروي حكاية الملكة المصرية مع التنبؤ ليضمن تمرير غواية العرافة لبعض الضيوف المحددين.

ومن أغرب الحكايات التي ربما رويت لأول مرة في إحدى تلك السهرات البرجوازية الفرنسية، حكاية جوليا دومنا الأميرة الحمصية ابنة كاهن الشمس التي حدث أن تنبأ لها أبوها قائلًا، كما روت نازك: «الرجل الذي ستتزوجينه سيحكم روما»، وللمصادفة تصل النبوءة إلى مسامع سبتيموس سفيروس الذي كان قائدًا للحامية الرومانية في حمص، ويروى أنه قرر الزواج بها ليضمن حكم روما، وهذا ما حدث بالضبط دار الزمن وحكم روما مع جوليا دومنا مؤسسين بذلك للأسرة السورية التي حكمت روما ما يقارب خمسة أجيال وسجل التاريخ أسماء عدة منهم: جوليا مايسا وجوليا ماميا وكراكلا وإسكندر سفير.

تامار عرّافة يهودية كانت تستعين بها كل أسر مدينة دمشق، تدير محلًا للعطارة في شارع مدحت باشا متنكرة بهيئة رجل بعد أن ورثت المحل عن أبيها، وبشكل سري تبيع الأعاجيب في محلها. نازك كانت تستمتع بسماع ما تسرده عليها تامار، من أسرار حول مفعول بعض الأشياء الغريبة كذيول السحالي وأسنان القطط

وجلود الأفاعي، محلها كان يحوي كل تلك الأشياء التي يمكن أن يطلبها بعض السحرة والمشعوذين الذين يمارسون أعمالهم في أرياف المدينة بعيدًا عن الأعين.

تامار كانت تخصص يوم الخميس لزيارة بيوت محددة لتكون نجمة استقبالات تقيمها سيدات دمشق لتقرأ الفناجين المقلوبة. ليس مصادفة أن تكون غالبية تلك البيوت فيها فتيات بعمر الزواج، ويكفي أن تشيع سيدة البيت أن تامار ستكون في حفل استقبالها ستضمن تلبية دعوتها من جميع السيدات، إضافة إلى دولت خانم كانت تامار أصبحت صديقة محببة لنازك التي راحت تستضيفها بشكل دوري في صباحاتها المتأخرة بعد مغادرة كمال إلى عمله. مستذكرة تلك الأيام التي كانت تجمعها بالعرّافة التركية "صباح". كان مجيب شان يستخدمها لمآربه الخاصة، يرسم لها التوقيت المثالي لتصادف أحد منافسيه في مجال البترول، خلال لعبة تنس أو غولف أو خلال إجازة يقضيها على شاطئ المتوسط.

صباح تعرف تمامًا ما تقوله بلغة العرافين المخادعة والمقنعة فينسحب ذلك المنافس من الصفقة لصالح مجيب شان دون أن يخطر له أبدًا سرّ اللعبة. كلمات صباح تكون قد عششت في أذنه وهي تنصحه بالاحتفاظ بماله لأنه مقدم على دخول صفقة خاسرة كما تؤكد النجوم والكواكب... مجيب شان كان يعرف أن الأثرياء أكثر تصديقًا للبصارين من الفقراء. لأن الفقير لا أشياء كثيرة لديه ليخشى فقدانها بينما حال الثري ليست كذلك.

لكن مجيب شان كان يعتبر أن هنالك خدمة أهم سيظل ممتنًا لصباح لقاءها.

صباح ذات يوم طرقت باب فيلا جيجل حيث تقطن وسيلة بوسيس الحانقة والتي قيل إنها تفكر بقتله وقتل نفسها جزاء خيانته لها. لم تفاجئه وسيلة بذلك وهو العارف جيدًا بشؤون النساء فلا يمكن امرأة قبل سنوات حينما لم تزل فتاة قروية بعد، أغدقت عليه حمولتها من الماء البارد دون أن يرف لها جفن، أن تكون إلا كذلك... كان يعرف أنها يمكن أن تفعل ما هددت بفعله ببساطة.

صباح قرأت لها فنجان القهوة وقالت لها إن هنالك رجلًا جديدًا في حياتها ينتظرها بعد إشارتين، أي بعد مدة لن تتجاوز الشهرين، مجيب شان كان جاهزًا بعد أسبوعين بالضبط جعل أمنيتها تتحقق وذلك بشاب وسيم يحمل الورد الأحمر وجيوب مملوءة بمال يصرفه عليها حتى تنسى مجيب شان... وانخرطت وسيلة بقصة حب جديدة بحياتها وحين علمت بخطة مجيب شان عقب سنة سامحته لأنها كانت سعيدة مع ذلك الشاب.

* * *

نازك كانت ابنة ذلك الوسط الثقافي الذي يتبنى عبارة كاتب تحبه باريس كثيرًا، هو ألبير كامو (إن البشر يجدون طوال شبابهم حياة على قدر جمالهم. وبعد ذلك يكون الأفول والنسيان).

نازك، تتذكر تمامًا عندما كتبت مخطوطة رواياتها الأولى والوحيدة التي انتهت في سلة المهملات، يومها قرأتها على زميلاتها

في دراسة القانون بالسوربون، وكان الاعتراض الرئيسي أنها جعلت بطلة الرواية جميلة وذكية وهذا لا يمكن. يومها اعترضت بشدة، دافعت عن بطلتها ما أمكن، نازك كلما تذكرت القصة قالت: تلك الفتيات القانونيات القبيحات المسترجلات، حطمن أحلامي لو أني قرأت روايتي التافهة تلك لزميلاتي من العارضات لشجعنني فعلًا. وتضيف:

- الأديبات كرسن صورة "الجميلة الغبية" بينما الأدباء برعوا بالتعامل مع الجميلات وخلدوا تقاسيم وجوههن وتفاصيل يندر أن تذكرها "مثل نبرة الصوت، طريقة المشي، النظرات، اللفتات... تلك الأشياء الإضافية التي تصنع الجاذبية". الأدباء هم من أبرزوا جمال النساء.

اجتاحت مقاهي باريس موضة قراءة كتب جويس بعد أن ظهرت صور قديمة لمارلين مونرو وهي تقرأ أعماله. كان قد التقطها لها أحد المصورين.

حتى لا تكون دمية أو محض امرأة جميلة دماغها فارغ، كانت المطالعة من هوايات مارلين مونرو وكان حولها من ينتقي لها الكتب... كانت نازك تجول مع مجيب شان في معرض يضم صورًا فوتوغرافية تعرض لأول مرة لمارلين مونرو.

وإذا كان المصورون قد تفننوا بالتقاط الصور لجسدها العاري في أكثر من مرة، فإنهم أيضًا فعلوا ذلك وهي تقرأ. ترتدي الشورت القصير الذي يبرز فخذيها تمامًا وقميصًا مختزلًا يظهر أكثر ما يخفي. وحين أصدر جيمس جويس روايته الصعبة بحق

«عـودة عوليـس» كان هنالـك من يلتقط لهـا صورة وهي تقرأ تلك الروايـة وتبـدو مندمجـة تمامًا مع أجوائها، وتعمد المصور أن يبدو الغلاف واضحًا لإقناع العالم بأن مارلين ليست فاتنة فحسب، إنما أنثـى مثقفـة مكتملـة النضـج. كان كل ذلك جـزءًا من تكتيك مدير أعمالها لصنع الخلطة التي يعشقها الرجال: المرأة الجميلة والمثقفة والأنثى... نازك لم تسـتطع قراءة عشـر صفحات من رواية جويس تلك، وكلما صرحت برأيها لاقت الهجوم، وهذا ما كانت تستمتع به.

مجيب شـان المغرم بالجميلات كان حاضرًا لتظاهرة شـهيرة حدثت في أميركا خلال حفل انتخاب ملكة جمال أميركا حين قامت اثنتا عشرة امرأة برفع لافتات مناهضة للحفل وتطالب بتحرير المرأة واعتبرن حفل اختيار ملكة جمال «تحويل المرأة إلى سلعة بطريقة مضحكة»، وبعدها توالت احتجاجات المرأة «النسـوية - السـلمية والرمزية ضد ما اعتبرنه رموز قمعهن» صديريات وأحذية بكعوب عاليـة، مشـدات... مجيب شـان كان يسـخر من تلـك المحاولات النسوية ويعتبرها حرفة النساء القبيحات.

- لكن جين فوندا امرأة جميلة وقالت «على النساء أن ينزعن مـن صدورهـن قلـوب القطط وأن يتحولن إلى بـركان تحت أقدام الرجال».

نزعـت ثيابهـا فـي فيلمهـا الشـهير "باربارياللا" لأنهـا لم تعد شـابة، وتعرف أن الشـباب لا يدوم لهذا، قررت أن تعثر لها على مكان بارز وتضمن أن لا ينساها الإعلام أنها امرأة مدعية وكاذبة...

يقول مجيب شان الذي لا يتردد بإظهار كرهه للنمط المسترجل من النساء ونازك لم تكن أيضًا تحب نساء مثل فوندا التي كانت قد عادت لتوها من فيتنام حيث زارت هانوي وأعلنت عن موقفها السياسي وأصبحت تصف نفسها بالأنثوية والليبرالية. وصنعت جين فوندا لنفسها قدمين من زلزال. بينما نازك كانت تثير استغراب من حولها وهي تصرّح للجميع: أنها مغرمة بالحروب، ولولا الحروب لما تغيرت خريطة العالم منذ وجد، ثم تضيف كمن يهمس سرًّا:

- الحرب الخفية، تشتعل كل يوم بين النساء، فيما هن يبحثن عن صورتهن النهائية التي ترضيهن وفي الوقت نفسه تعجب الرجل. وهذا - إعجاب الرجل - ما أنكرته النسويات وشطحن في حركتهن التحررية وتنصلن من أنوثتهن وانقلبن إلى مسترجلات، وبالغن بالمطالبة بالمساواة مع الرجل لحد أنهن قدن المرأة إلى المعامل والجندية... كدن أن يتحولن إلى كائنات إسمنتية مسلحة بمنطق محاربة الرجل. مجيب شان طبعًا كان يوافقها ومعظم الرجال الأثرياء كانوا يتبنون الرأي ذاته فيما الرجال المثقفون الذين يفتقرون إلى المال الذي تحبه النساء راحوا يملأون رؤوسهن بهذا الهراء ليحظوا بممارسة الجنس دون شراء الهدايا أو حتى زجاجة نبيذ.

بكل الأحوال إذا لم تتصالح المرأة مع أنوثتها، ومع حقيقة أنها أجمل بكعب عال، وطلاء الشفاة والأظافر فإنها ستقف في مهب الشك فقط. ولن تعجب مجيب شان...تقول نازك كلمة أخيرة وهي تجلس على سجاد المطعم المراكشي وتنتظر طبق الكسكي.

* * *

في تلك السنة التي مرض فيها مجيب شان، بدأ الفستان يصل إلى الركبة وسادت موضة إيشارب على العنق، وكعب عريض... أخذ مكان الكعب الدقيق.

لم تعد نازك معجبة بالهبيين الحفاة بووجوههم الملطخة بالقاذورات وحالهم وهم يمشون على أيديهم ويزحفون على بطونهم، يتناسون لغتهم ويطلقون أصواتًا بدائية...

تشمئز منهم وهي تمر من مونمارتر وبيجال، وتشيح بوجهها عنهم، وهم يدخنون الحشيش، ويغرغرون بأصوات بهائمية، كلما عبرت أمامهم امرأة متأنقة. وضع مجيب شان الصحي لم يمنعها من متابعة مهرجان مصففي الشعر الذي أقيم في قصر "شايو"، وسلمت شعرها الأسود الغزير لأنامل الفرنسي الشهير "ألكسندر" الذي يسترسل شعره على قفاه، يرتدي حزامًا من الذهب وظهرت بتسريحة "برسوليس" من وحي بريجيت باردو في مجلة ماري كلير.

في الصيف اعتمدت تسريحة "كودى سولي" أي لفحة الشمس حيث كان الشعر لا بد أن يكون ثلاثة ألوان: الغامق ثم أفتح قليلًا وميش في مقدمة الرأس.

تناولت لحم الطاووس في مطعم مكسيم مع مجيب شان الذي بدا أنه يقاوم مرضًا قاتلًا.

* * *

صوته مثل الحب يوجعنا ببراءة... قالت نازك لكمال الذي كبس زر الراديو وقطع أغنية لعبدالحليم حافظ، ثم يصيح بها:

- ألم تسمعيه في باريس وأنت برفقة رجالك الآخرين؟

- في باريس؟! لم أكن أسمع، إنما كنت أرقص، أبحث عما يجعلني أتحرك، ما يرقصّني. كانوا يقولون لي إن أجمل شيء في الحياة الرقص.

- آها، كنت تراقصين رجالك؟

- وأنت تحرمني حتى السمع؟ ماذا أحرم؟! في صحبة الحب... تعلمت الهدوء ومتعة الاستماع لأغنية تختزل حالي، عندما أحببت، لم أعد أريد أن أرقص أصبحت أريد أن أشرد وأتوه بعيدًا. عندها اكتشفت عبدالحليم حافظ... لتبدأ حكاية مشتركة مع صوته، لا بد أن كل واحد منا قد عاشها مع صوته كل وفق حكايته مع الحب.

عبدالحليم هو ملجإي منك... عندما تعشق حين تكون ممسوسًا بالغيرة متعثرًا بالظنون حين تصنعك الشكوك. أخيرًا سقطتك في نار الهوى ذليلًا على قارعة أمل... يأتيك صوته ليشبهك. لتجد أن هنالك منْ حاله مثل حالك، تكاد تموت عشقًا فتسمع أغنية تغنيك عن تعاطف أمك وأبيك وأصدقائك. ينقذك عبدالحليم وهو يحكي بلسانك ويغني تفاصيل ما تعيشه، «أبعت روحي تصحيك...». حين تتمنى لو أنك تتبخر عشقًا، تتلاشى توقًا، حين تلتقي عيناك بعيني من تحب، وتجري العيون مفاوضاتها السرية، وحده عبدالحليم ستجده معك. إلى صفك، جوارك، قربك.

صوته يؤازرك، يشجعك، يأتيك صوته بكلمات تجس نبضك، وتستنطق غورك. مثل تيار كهربائي تسمعه يقول: "قوللي حاجة...

أي حاجة قول". ومثل هزة أرضية يصيح معك "جبار". إنه الصوت الذي دائمًا معك، في مرتفعات الأمل ومنخفضات اليأس. صوته لا يتركك معافًى من غرامك، لكن يصبّرك. وأنت محدقًا إلى سقف حكايتك واضعًا يدك على خدك سيأتي ويجلس معك، ويقلب فنجان قهوتك "آلاف المرات" سيجاريك بكل ما قد يمليه عليك الحب من حماقات...

حين تتأرجح العاطفة بين العفو والثأر. بين النوم على جوع الحب أو اليقظة تحت جمال قمر يظهر قبل الغياب وبالعكس! يكرهها كمال ويحبها ويريدها من أن تكون طيبة صالحة للأكل فقط.

* * *

نازك التي كانت تقضي سهرات الشتاء موزعة بين صوت عبدالحليم الذي يسحرها، وصوت أسمهان الذي يعشقه مجيب شان. رجل مثله مولع بالنساء القويات، كان لا بد أن تذهله أسمهان، لمرات عدة أعاد مجيب شان الكلمات ذاتها في وصف أسمهان، كان يقول عنها:

- جمال لا يجادَل، وليس وديعًا، ولا مسالمًا، ولا مارقًا. منفردة، متفردة، غامضة، إشكالية.

معدنها فيه الذهب مخلوط بالفضة التي تخبئ النسغ الذي يلوح ألماسًا يخرج من حنجرتها.

شخصية تراجيديا بامتياز تشبه بطلة مسرحية إغريقية. وأجمل

ما فيها أنها ليست طيّعة إطلاقًا، كان مفتونًا بنساء عشن حياة باذخة العواطف... ومن ثم رحيلًا عجولًا. كان يقول لها:

- النساء يصبحن مشهورات إما لأنهن جميلات أو موهوبات أو ذكيات أو لأنهن ملكات أو أميرات.

أسمهان تقريبًا فيها كل تلك الميزات فكانت أنثى: مداهمة، مربكة، محيرة ونجمة. مع الوقت غدت نحتًا بارزًا آسرًا يشهر كبرياءه في وجه ذاكرتنا.

بعض النساء يفعلن ذلك، بالمواربة والتورية يسرّبن ارتباكًا غامضًا حولهن.

وفي مرات كثيرة كان يعترف لها قائلًا لها، وسط غمامة من الحزن:

- ربما بسبب النساء الضعيفات المغلوب على أمرهن اللواتي كبرت بينهن نما وكبر جوعي الرهيب للنساء القويات، للأنوثة المعدة للقتال والحب والمناورة... التي تتمرد على كل ما حولها من ظرف وقدر وبشر.

لولا أن أسمهان كانت ميتة، لعاشت نازك أرق الغيرة المرة بسبب إعجابه الشديد بتلك المرأة النارية المرموقة المغامرة، التي اقتحمت رقعة شطرنج خطيرة اسمها السياسة. لعبت بالنار ومع الكبار وبكامل أبهتها كأميرة وعاشقة ومطربة نادرة كأنثى خام، لبؤة شرسة مدهشة اخترقت تكتلات سياسية خطرة، ناوشت بلاطات وتحدت ملكات، وماتت بحادث لا زال لغزًا، ليكتمل ماضيها

الملتبس المتنكر المخاتل ليصير - ربما إلى الأبد - حاسمًا حذرًا متمترسًا وراء ترسانة من الأسرار.

* * *

- لا أحب المرأة العابسة مثل بلوتو.

وقتها لم تكن قد عرفت أن كوكب بلوتو هو الأخ الثالث لكبار آلهة الأولمب (جوبيتر ونبتون) والمتجهم الحزين، الصارم بعدالته.

كل أحد يدخل السوربون مهما كان انتماؤه فعليه أن يعرف أبطال الإغريق الذين جعلوا للحب كوكبًا وآلهة "فينوس" إلهة الجمال والحب والنسل وإخصاب النبات والحيوان التي تقدس الزهور وتحرك الحب في قلوب العاشقين، وتهب البشر جمال الجسد الذي يسبي العقول.

وللحرب أيضًا منحوه كوكبًا متجسدًا بالإله "مارس" الذي يمثل كوكب المريخ. وعطارد الذي أخذ اسمه من هرمس إله التجارة والرياضة وشتى المهارات البدنية واختاره أبوه جوبيتر رسولًا إلى الآلهة والبشر وجالب النوم والأحلام. يوصف بأنه كان سريعًا يسبق الجياد والريح، ماكرًا يجيد الكذب والاحتيال، تقول الأسطورة إنه لفرط سرعته قد ولدته أمه «مايا» في اليوم الرابع لحملها... وزحل أو ساتورن الذي أخذ اسمه من الإله البدئي الذي حكم الأرض وأنجب الآلهة الذين تمردوا عليه لاحقًا... كذلك، الكوكب نبتون الذي يرمز للبحر يثير العواصف ويهب الملاحين

السلامة أو يقذف بهم في اللجج، ويشرف على كل ما يجري في البحر من صيد أو تجارة أو معارك بحرية ويحمل حربة ذات شعب ثلاث يزلزل بها الأرض ويشق بها الصخور... وأورانوس إله السماء المحيطة بالأرض. وكوكب المشتري «جوبيتر» كوكب الحظ والسادة، إيماءة من رأسه تكفي لزلزلة جوانب الأوليمبوس وإنفاذ إرادته، سلاحه الصاعقة، وهو مطلق الرياح من قممها حبلى بالأمطار والسيول... الموت وحده كان «مفردة» غير متداولة لدى الإغريق، فلم يشأ أولئك البشر أن يتحدثوا عن الموت بل أسموه «الفراق» فلا يقال عمن نالهم الردى إنهم ماتوا بل «فارقوا» فلم يسموا بلوتو إلهًا للموت، إنما إلهًا للعالم السفلي حيث يعتقدون أن الأرواح حين تغادر تذهب إلى هناك حيث يحل الموتى في حياة لا طعم لها، ولا لون يبدون أطيافًا تمثل ما كانوا عليه في حياتهم الدنيا!

مثل الإغريق علينا أن نفكر ونحن نعيش على كرتنا الأرضية التي تتدحرج بين أشقائها الشرعيين: سبعة كواكب وعشرات الكويكبات المتناثرة حولها تدور ونسميها أقمارًا. ما زال العلم يصر على تخليصنا من الخرافات... كانت نازك حانقة وهي تقرأ كتابا يفسر لغز مثلث برمودا... وهي المولعة بلغز مثلث برمودا إلى أن قرأت كتابًا يفسر ظاهرة اختفاء السفن والطائرات في خضمه. المشكلة أن التفسير كان منطقيًّا، وكان عليها أن تقتنع رغم أنفها بنظرية علمية تحل لها كل تلك الألغاز الجميلة... لم تكن الروح البوليسية هي التي تحركها قط صوب الألغاز، ربما كان شيئًا مبهمًا

مـن الرومانطيقيـة يغازل أفكارها بين حقيقة وأخرى. كذلك، ولعها بالأشياء المفقودة فتخشى أن يخربه اكتشاف علمي ما يباغت حلمها بوجـود قـارة الأطلنطـس المفقـودة في عمق أحـد المحيطات يظنه أسلافنا أنه المحيط الأطلسي...

كانت في مقهى فلور حيث تتجمع بعض الممثلات المسرحيات الجميـلات مـع كتـاب قبيحين حول إحدى المنجمات الفرنسـيات التي تحاول تفسير موهبة الشاعر الفرنسي أرثر رامبو بسبب لحظة ولادته النادرة والمرتبطة بالكوكب - سـابقًا - بلوتو، وربطت بين الـروح التدميريـة التـي يمثلهـا بلوتو وتلك الروح التـي تغنّت يومًا بالجحيم، روح رامبو.

كان علي أن أولد في زمن الإغريق لأحظى بمكان في السماء أو ربمـا كنـت حظيت بقارة كاملـة الحضارات القديمة تمتلك كمًّا كبيـرًا مـن الرومانسـية وتجـرأت وأطلقـت أسـماء نسـاء جميلات علـى الكواكـب والنجـوم، مثل «أوروبا» اسـم الأميرة الفينيقية التي اختطفهـا يومًـا جوبيتـر ولأجـل اسـترضائها أطلق اسـمها على كل القـارة الأوروبيـة ولاحقًـا أطلق اسـمها علـى أحد الأقمـار التابعة للمشتري «جوبيتر»! بهذه الطريقة المتعالية كانت مشاركة نازك في تلك المحادثات.

* * *

مجيب شان المولع بدافنشي وجد أن غالبية جدران شقته مبللة بدمـوع دورا مـار، وإذا كان هـو معجبًـا كبيرًا بلوحة الموناليزا، فإن

نـازك لـم تكـن تحمل أية مودة تجاه تلك اللوحة المبتسـمة. كانت تحـب لوحـات بيكاسـو تحديـدًا تلك التي رسـم بها وجه عشـيقته دورا مار التي اشتهرت باسم المرأة الباكية. أيضًا ثمة لوحة ترافقها وتحملهـا فـي قصاصات منتزعة من مجـلات وصحف فيها صورة للوحة الظبي الطعين للرسامة المكسيكية فريدا كالو.

تتحـول نـازك إلى ثرثارة كبيـرة عندما يتعلق الأمر بدورا مار. كانت دائمًا تقول مبررة:

- مـن الأفضـل لكل إنسـان أن يمارس المهنـة التي ولد لها، ودورا مار، ولدت لأجل البكاء المرير.

إنها تجسـد بشـكل مفجع وحقيقي طبيعة المرأة حينما تغار، فتتملكهـا الغيـرة وتبدو مهما كانـت جميلة، جرداء، عجفاء، نخرة، يقرضها دود الحسد.

- ذكاء بيكاسو أنه استخدم الجميلات. مجيب شان يعلق قائلًا ويتابع:

- هشّـم الجمـال الأملـس لوجـه دورا مار... يكفـي أن ننظر إلى وجهها ليجد المرء نفسه بلا موطن، بعيدًا عن ذويه، عائمًا في عرض محيط من الشكوك، فيبحث عمن قد يهرع لنجدته، لكن دورا مار لن تسمح ستهشم عظامه في هجومها الخادع المزعوم، تكمن روعتها في أنها تنجح في إعطاء التمزق حضورًا كبيرًا وفريدًا...

بينما كان بكاء دورا مار يقفز خارج حدود اللوحة مثل شيطان أفلت من قمقمه كانت نازك تستمتع بابتكار أوصاف لحزنها...

* * *

- كل القطط قادرة على المرور من جحر فأر... يقول مجيب شـان، وهو مستفزًّ من القط الأسـود الذي لا يفارق حجر نازك... أيضًا لا تنسى تفسيره لولعها بالقطط بقوله: القط، سيد المتسلقين، المتمرد على التوازن، سـيد القفزة الطارئة، من سـياج إلى سـياج، ومن سلم إلى نافذة، ومن سطح إلى شرفة، سيد الصاحين لدسائس الهواء وتلك الأشياء التي يتعذر إمساكها... مثلك تمامًا.

هكـذا، كانـت بالنسـبة لكمال الذي كان يشـبهها بالقط وكلما جاءت بقط جديد اختفى فجأة دون تفسير من قبل كمال.

عندما يقوم الحاضر بحركات الماضي ذاتها تحضر المشاكل، نازك بدأت ترتكب الأخطاء ذاتها مع الرجال.

- إذا كان عليكم تحطيم أسنان النساء حتى لايحظين بالقُبَل، فعليكم أن تخصوا أنفسكم إذًا!

قالـت ذلـك على أثر الصفعة التـي جعلت فمها ينزف، كانت المطالبة بلبس الحجاب سببًاً للشجار اليومي.

لا يغدو الحب حكاية إلا عقب مأساة لهذا، ظلت نازك خانم حكاية في ذاكرة دمشق.

مـع كمـال أصبـح كل شـيء إسـلامويًّا فقط، جرّد دمشـق من تاريخها قبل الإسلام. كان يقول لها: إن ما حققه العرب المسلمون كان أكثـر تميـزًا ممـا فعله غيرهـم... انظري المـدارس والدكاكين والبيمارسـتانات. وأسـبلة الميـاه والخانـات وكل تلـك الواجهـات الضخمة والزخارف الفخمة.

نـازك لـم تسـكت، إنما راحت تذكره بأسـماء دمشـق الكثيرة:

جيرون وجلق وتيماشكي ودامسكينه، واستفزته كثيرًا حينما قسّمت اسم دمشق الى دم شق، أي دم هابيل الذي شق الأديم لأول مرة، وبدأ تاريخ القتل. مدينة دخلت التاريخ مع تاريخ الموت ومع سيرة الدم لهذا تنضح بالأضرحة الكثيرة التي تتربص في حنايا حاراتها.. كانت عاصمة وسيدة وآمرة وناهية مذ كانت عاصمة للشعب الآرامي وجعلت كل الممالك المحيطة بها تدفع الجزية ذهبًا صافيًا... كمال يقاطعها: ولكن، بعد ذلك أصبحت تابعة للآشوريين ومستعمرة للكلدانيين وارتبط مصيرها بالغرب مع قدوم الإسكندر المقدوني تبعت للسلوقيين ثم الرومان ثم البيزنطيين... نازك تقاطعه بشغف وحدة وبعينين مسعورتين: ودمشق كانت في عهد الإمبراطور هادريان «ميتروبول» لكل الشرق الأوسط... كمال يصيح بها: بعد عشرة قرون جعلها الإسلام عاصمة ذهبية لدولة عظيمة...

مثل تلك النقاشات كانت تسمم أيامهما... ليلًا حين يأتي موعد النوم يصبح التصالح أمرًا مفروغًا منه من كلا الطرفين ومع الصباح تتجدد المشادات.

المنزل الدمشقي الفخم الذي كان يقطنه كمال بيك مع زوجته. يحتوي أسكفة باب تتوسطه كتابة يونانية. ذات صباح فيما كانا يشربان القهوة عند البحرة نبهته نازك باستفزاز وأكدت له هوية دمشق المتنوعة.

بعد الظهر جاء بعمال وقام بتهديم الأسكفة الأثرية دون رحمة.

نازك اختفت عن أنظاره لمدة أسبوع. جن جنونه عندما سمع

أنهـا وصلـت فيـلّا عمتهـا كعادتهـا السـابقة على زواجهمـا، حافية القدميـن وركنـت سـيارتها بعـد أن أحدثت ضجة كبيـرة بذريعة أن لا مكان متاحًا لتركن سـيارتها. حين خرج رجل خمسـيني مربوع لازاحة سيارته البويك الحمراء لتحظى نازك خانم بمكان تركن فيه سيارتها بأمان... لم تكن تعلم أنها أمام رشدي بيك المغرم العتيق بها وعن بعد لسنوات طويلة.

الجميع هرع كالعادة للتمتع بمفاتن السـيدة المتهورة والثوب الأزرق الرهيف الذي يشي بكامل تفاصيل جسدها. نازك لم تكترث لأحـد، إنمـا راحـت تبحث عن قطتها وكلبها اللذين أبعدهما كمال من المنزل، وراحت تناديهما بأعلى صوتها وتبحث عنهما في أنحاء الفيـلا دون أن تكتـرث لوجـود أحد. الفيـلا مزدحمة ونازك بالكاد تلقـي التحيـة بنظرات سـاهمة وتوظب شـعرها الكسـتنائي الطويل كيفما كان وتبحث عن حيوانيها المدللين.

بعد يومين عندما جاء كمال بيك. لم تقابله، رفضت الخروج، أطلق زمور سيارته، وأقلق الهدوء الصباحي لبلودان. وحدها العمة نزلـت إليـه ترافقها الخادمـة تحمل ركوة قهوة مليئة، وبرائحة حب الهال دار الحديث بين العمة وكمال بيك:

- أحبها... قال كمال باستسلام حانق.

- الحـب وحـده لا يكفـي آه... ثم تتمتـم: الآن عرفت لماذا السينما تزج هذه العبارة في كل أفلامها العاطفية. تقول العمة وتنظر إلـى كمـال المتوتـر الذي رمى سـيجارته تحـت حذائه وراح يمعن بمعسها.

العمة فهمت الوضع، ليس صعبًا التكهن بسلوك رجل يطحن عقب سيجارته بهذا الشكل قالت لنفسها.

- نازك لن ترتدي الحجاب يا كمال.

قالتها دون مقدمة.

رفع ناظريه نحوها وعيناه مليئتان بالغضب.

- أنا زوجها وعليها أن تطيعني.

- نازك لن تطيعك وأنت لم تفتح معها موضوع الحجاب قبل الزواج.

العمة كانت تعرف أن كمال بيك علم أن نازك سهرت مرتين مع رشدي بيك في كازينو بلودان.

وثمة أقاويل سرت بين الناس أنها ستطلق كمال بيك وتتزوج رشدي بيك وترافقه إلى باريس التي تحبها فدمشق بالنسبة إليها مدينة لا يمكن أن تعيش فيها... فمستقبلها كما كانت تتنبأ مليء بنساء مجلببات بالقماش الأسود الذي تمقته، وهذا ما لن تطيق رؤيته أو ترضخ له.

النساء لم يوفرن كيدهن، وأخيرًا جاءت الفرصة المناسبة للانتقام من هذه الجميلة "نازك"، وأصبحن يصفنها بالزنديقة، والنساء المتدينات يرمقنها بنظرات لئيمة تحمل إدانة كبيرة. مع كل يوم كانت هناك إحدى السيدات ترمي بالفراء والأقمشة الغالية والأزياء الباريسية وترتدي المانطو والحجاب. وبطبيعة الحال تتحول إلى عدو لغيرها من النساء وهكذا زاد كم العداوات.

ذات مرة سألت كمال:

- أين أنا؟

- أنت هنا بين ياقة قميصي وقلبي... همس بذلك وهو يحيط خصرها النحيل بذراعيه...

كان يخشى أثر امرأة لم تستعمل مترًا واحدًا من الحبال، لكنها قيدته برائحتها.

في النهار يختلفان فيما الليل يدسّ خفية أنامله ويجمعهما بشغف كبير.

ما من طعمة غريبة لشفتيك... لكن فراشات الحب تقلّنا إلى الموت على شرف الضوء...

بيني وبينك كل مسافات الندم، على كل الأخطاء التي اقترفتُها. بعضها فعلته بتهور عاشق، وبعضها بتأنٍّ منتقم..

* * *

قبل سنوات كانت تستمتع بتلك اللحظة وهي منح يدها لأنامل مجيب شان ليحيط معصمها بسوار يغلق بالبراغي أطلقه «كارتييه»، وذاعت تسميته بسوار الحب. لأن المرأة لا تستطيع تثبيته حول معصمها دون مساعدة شخص آخر، وهذا الآخر يفترض أنه الحبيب.

في خريف عام 1973 كانت في باريس سعيدة «قليلًا» بثوب من بيير كاردان موديل كم الوطواط، وبوت بلون الأصفر الرملي، ومتحمسة لكريستيان ديور وهو يعود للموهير الذي سيطر على أوائل الخمسينات.

حضـرت فـي باريـس مباراة للشـطرنج بين سـت لاعبات من روسيا، وستة لاعبين من فرنسا جميعهم أبطال لأعوام سابقة انتهت المباراة بفوز فريق النساء بعد منافسة شديدة استمرت ساعات عدة.

لـم تكـن نـازك غاضبة جـدًّا، منفعلـة، متوترة وخائفة بسـبب حرب أكتوبر التي اشـتعلت على جبهتين سـيناء والجولان... إنما مستاءة من الموضة التي غطت الركبتين تمامًا، وفي الحفلات التي كانـت تحضرهـا تردد: «موضة الماكسـي اخترعتها ذوات السـيقان القبيحـة» وأصحـاب دور الأزيـاء كانوا يـرددون «العودة إلى تحت الركبة مؤامرة، العالم سيعود عشرات السنين إلى الوراء...».

فـي لنـدن زارت بيـت أزيـاء «مـاري كوانـت» لأنـه كان أول بيـت للأزيـاء يبتكـر موضة «الميني جوب» في لندن، وأخذ شـهادة تقدير من ملكة إنكلترا بسبب العملات الصعبة التي أدخلها للبلد، وانتقامًا من الماكسـي اشـترت تشكيلة مايوهات بكيني ثمن الواحد منها عشرة جنيهات استرلينية...

وفـي روما لم تكن سـعيدة بوابـل المطر الذي خرّب هندامها وهـي تسـتقل الحنطـور الذي عاد يجوب شـوارع روما عقب قطع النفط عن أوروبا خلال الحرب.

7

(هذا ما يخلص من كل الألم
ولك الاختيار: الموت العاجل، أو الحب البطيء)

نيتشه

- عشتار لا تحب... إنما تشتهي.

- وكيف ذلك؟

- أنت مغرورة.

قيلت لها هكذا بشكل حاسم ونهائي.

- أنتِ مثل نارسيس ذلك الراعي الوسيم الذي رأى صورته في الماء وسُحر بصورته وغرق في هوى نفسه.

- وهل المطلوب مني أن أعجب بالآخرين دون نفسي، أن يسحرني غيري؟ ماذا لو لم يغوني الماء قط.. لم أنظر في صفحته الغدارة، لم أخطئ كما نارسيس، حتى لا أكلم نفسي وأعشق نفسي فتأتي نسمة هواء وتكسر وجه الماء وتخلخل حسني وألقي... أو يأتي حجر طائش فتذهب ضحيته صورتي المكتملة...

أيضًا كانت تقول:

- لا أنظر في مرايا الآخرين، حتى لا تفزعني لحظة غيرة متزمّتة، عن بُعدٍ تلامسني... وتتمنى قتلي. ولا نظرات "الآخر" بالهجاء ترميني... فقط حين أخلو إلى نفسي أترك نفسي متبجحة في السرّ، أنوس بين انكفاء المهزوم وخيلاء المنتصر... أترك غروري يتضوع بدهاء عطر يهمّ بالذهاب إلى وجهة سرية لا يعرفها أحد.

في مجلة فوغ ظهر ما قالته نازك لصحافي أجرى استطلاعًا حول علاقة العارضات بالمرايا وكان هنالك إجماع على أن ما قالته كان الأهم والأجمل: لم أحمل قط مرآة في حقيبتي، وأنا أخاف المرايا الصغيرة، حتى لا أرى نفسي على عجل، حتى لا أعود أدراجي ويبصقني بستان النرجس ويخيل إليّ أنني "رأيتني"

خرافة تستريح بهدوء على صمت الطين...

وفي الحفلة الكبيرة التي أقامها مجيب شان اجتمع حولها كتاب ونقاد وشعراء وهم لايكفون عن مجاملتها ومديح ما قالته وأكدت رأيها بشأن المرايا بقولها: لكل المرايا قلب من حجر... المرايا المسطحة لا تقول لنا شيئًا. علينا أن نحوز مرايا محدبة ومقعرة تمنحنا رؤية لمسافات بعيدة، المرايا الكبيرة تلهمني... زميلاتها العارضات كن فخورات بما تقوله وفي الوقت نفسه مندهشات... بعض الصحافيات والكاتبات اللواتي كن حاضرات كنّ مصرّات على أنهن قرأن ذلك في كتاب ما، وأن نازيك هانوم اختلست تلك الكلمات من أحد الكتب.

بعد سنوات من تلك السهرة حين أصبح مجيب شان تحت التراب، وغدت تنظر في المرآة وتقول لنفسها: أصعب شيء أن تنظر في مرآتك فترى وجهًا كان يومًا سبب حياتك... الوحيد.

ربما، ننضج! أم إننا نحن المهددون بالنضج يومًا لن نقلع عن العشق من أول نظرة؟!

كيف سنتوصل إلى ذلك السر الفظيع الذي يتكفل بتحييد العينين؟!

كيف يمكن بتر تلك اللحظة الصاعقة الماحقة حين يباغتنا "الآخر" دون استئذان مستثمرًا كامل العمى الذي يتبرع السيد "حب" بمنحنا إياه مجانًا متظاهرًا بأنه هبة؟

عندما عشقت كمال كانت تظن أنها أصبحت في ذلك العمر

الذي سينظم فيه القلب دقاته وفق المنطق.

مع كل خطوة تخطوها كانت كمن يقول للآخرين:

سأظل جميلة كعشتار، وسيظل أدونيس مفزوعًا يأخذ طريقه نحو الغابة، سأبقى كعشتار التي اختارت لشهوتها رجلًا إلى صفوة الشجعان انتمى. غادرها ليجلب لها غزالًا وبتأنٍّ ورشاقة أدار ظهره للمخفي والمنسي... يقلّب أحشاء الدغل، يبحث عن طريدة تليق بعشتار ذات الأثداء الكثيرة... يتحرى أدونيس الغزلان مجبولًا بالتوق إلى ذراعيها...

بخطو وئيد تسلل بين العشب والزهر والفتنة تسكنه لهفة الصيد لأنثاه. لكن التراجيديا كانت تتربص بجماله وخنزير بري سريع هاجم الوسيم أدونيس.

وانعتق من ذراعي عشتار: مات. لم تنج الطبيعة من الافتتان بحسن أدونيس المقتول:

بأي أمانة رهيبة نبتت زهور مفرطة التوهج جذابة مثل سحر آسر خفي ومكان دم أدونيس بزغ فجأة شيء أحمر "نكاية" باستبداد القدر وعرف البشر زهرة اسمها شقائق النعمان.

كل زهرة منها انطوت على نية معلنة بالإغراء، لا أحمر يمكن أن ينافس أحمر شقائق النعمان.

يحدث لنبوغ الطبيعة أن يعبر عن نفسه بكائن جميل وكثيرًا ما كان هذا الكائن امرأة يخشاها الجميع.

أدونيس، كان فاتنًا شهيًّا، مثل الخطايا... وعلى كل امرأة أن

يكون لها أدونيسها، وفي اللحظة المناسبة ترسله إلى الغابة ليجلب لها غزالًا...

* * *

"عندما قررت نازك خانم هجر كمال بيك قالت له ما لم تقله عشتار لأدونيس: بوداعة حَمَلٍ أهجرك وأتركك.. مثل شذرات مقتضبة من تاريخ امرأة. نسيت مئزري على عشب عدن، لا يمكن التفاح أن يزهر خفية عن الأفاعي. ومثلما يتسرب النوم على دروب النعاس أتسلل بين شقوق الرغبات... أجرؤ وأغيّر أسماء شياطيني الكثيرة التي لا تتريّث في أن تقتسم "الخير" كخبزٍ يسمَّن شرورها.

لو أغلقت عيني لحظة، ينساك الزمان، إن تراءيت لك، أكون حكاية تدلّت منها بدايتنا والنهاية.

وحدها نازك كانت بالنسبة لكمال المرأة التي طرقت مباشرة فولاذ القلب. كان واعيًا إلى ضرورة نسيانها. لكنها كانت تقفُ مثلَ نور ينداح، تحتل كل المساحات الممكنة داخله وحوله، ودائمًا تبدو كعمل فني منجز رائق بجسدها الناري تتربص به في أحلامه بعناد لحظة ربيعية مترامية الأطراف...

رغمًا عن كل شيء، وبغضّ النظر عن كل شيء، يحدث الحب، كما لو أنّ ليس من أجل أي شيء.

كلما أغمض عينيه لينام يظل يتذكرها... حتى تزوغ عيناه.

كيف ينسى امرأة، تحمل ذاكرة تتخيل، ذاكرة تستعيد، وتمارس استراتيجية عطر، وتماثل سلوك عطر، أرادت أن تفوح، تتضوع، وبدقة حاسة شمّ.

يجتهد الكيميائيون بتقطير الخلاصات العطرية، وتجتهد المرأة بتحدي العصب الشمي المشكل من عشرات الملايين من الألياف العصبية لينقلها إلى مراكز الإحساس في دماغ امرأة كانت قد قالت له بهدوء وسط عاصفة غضبه وهي تعلق إحدى صورها في عروض الأزياء:

- أريد لماضي أن يكون ندًّا لحاضري على الأقل، فالمستقبل لا يخيفني لأني لا أعرف عنه شيئًا لكني لن أسمح للماضي بالتضاؤل أو الانطفاء لأن ذلك يتسرب إلى حاضري.

وعندما طالبها كمال بالصلاة، قالت دون اكتراث:

- لكني لم أعاهد نفسي على أن أكون ملاكًا طاهرًا. لذا، لا مبرر لدي للاستغفار.

عندما اختفت قطتها المدللة فجأة علمت أن كمال تخلص منها بذريعة أنه لا يحب القطط... بعد أيام من صمتها جلب لها قطة صغيرة، قالت له رافضة:

- لا، لا يمكن.

- لماذا، فالقطط متشابهة.

- ومن قال لك؟! هل البشر متشابهون، كذلك قطتي لا تشبه إلا نفسها.

كان قد بدأ يغادرها ذلك الشعور الذي عصف بها لحظة قابلته عند النبعة. الشعور ذاته الذي تملكها يوم التقت عيناها بعيني مجيب شان... وراحت تخطط للفت انتباهه، حتى جاءت تلك اللحظة المرسومة سلفًا من قبلها حين تمشت في حديقة قصره

وهي ترتدي مئزر نوم يزيدها عريًا، يوم نفذت حيلة حواء الأصيلة: كأن تختبئ في حديقة أحد الرجال ومع ذلك تطلق صرخة خافتة، أو تأتي بحركة أو هسهسة غامضة ليعثر عليها وهي متنكرة بثوب البراءة الخالصة...

كانت تعيش ذلك التوجس الطارئ، عندما تخفي ربة القدر عنّا تلك اللحظة المفرطة القرب والتي نجهلها لكن، نحسّ بها.

* * *

في صورة التقطها لها يوسف كارش أشهر مصوري القرن العشرين في أحد صباحات الخريف الأخير لها في باريس، في الوقت ذاته الذي تمرق فيه سنونوات باريس باتجاه الجنوب تقطع السماء بطريقة تتمنى لو كنت واحدًا منها... يقترب كارش بعدسته ويركز "الزوم" على وجه نازك فيما عيناها تترصدان الضوء المفاجئ الذي ينبعث من الفلاش يحدق بعينيها كمن يعرف أن ثمة بلدًا بدون اسم يسكن في بؤبؤ كل آدمي...

أخيرًا صارت تضحك تلك الضحكة السهلة... كم من المرارات احتاجت حتى توصلت إلى اجتراح ابتسامات مباشرة لا مبالية إزاء زمن عرفت أخيرًا كيف يمكنها أن تدعه يستمر حتى اللحظة الأخير...

عينان بحثتا في العتمة طويلًا تلمست الطريق في سديم أسود بدون أمل... عيني من انتظر أن يمر الحب التائه من الباب الضيق لخرم الحياة المراوغ.

كانت تعرف أن عدسة يوسف كارش التقطت وجوه شهيرة: صوفيا لورين، وتشرشل وأينشتاين. لكنها، الآن تمتلك: «وجهًا».

ليس سهلًا أن نمتلك الوجه الذي نستحق.

عثرت على ابتسامتها هي، لم تعد تقلد نادية لطفي في ضحكتها ولا فاتن حمامة ولا بريجيت باردو... من السهل أن نلتقي بالآخرين، لكن ليس سهلًا أن نلتقي بأنفسنا...

هناك في استوديو كارش وقفت: تدير ظهرها لليل قديم، هكذا كانت بالضبط خلال تلك اللحظة وهي تستحضر كل براءة شفاه الشاب الوسيم وطعم القبلة الأولى بين الحمائم على سطح منزل عمتها في الشاغور.

استغربت كيف أمام آلة عديمة العاطفة يمكن أن نتذكر كل شيء: كل الأغصان العالية والعنب الذي لم نحصل عليه قط... وأن نكون ثعالب التحسّر.

8

"كوني التي لا يمكن استبدالها، بأن تكوني مختلفة"

كوكو شانيل

كوني جميلة بشكل طبيعي، دون زخرفة، واصمتي، الصمت ثمين، يوزن بالقيراط، وإذا تكلمتِ افعلي ذلك مثل قطرات المطر المبعثرة تنقر أوراق شجرة وارفة.

أيضًا:

لا تزهري بطيش، خلي أغصانك دون أوراق، تمهلي بإعلان ربيعك، اتركيه يتساءل فيحسبك شجرة مشمش أو شجرة دراق أو شجرة توت فتفاجئينه أنك تحملين في كل غصن ثمرة مختلفة...

كان على مجيب شان الذي يفهم النساء أكثر من غيره أن يؤلف كتابًا ما يحمل النصائح للنساء اللواتي تعنيهن النصيحة إذا قدمها الرجل.

كان يعلق قائلًا كلما قصدت معرضًا لبيكاسو:

- إذا كنت ذاهبة لمشاهدة لوحة المرأة الباكية دورا مار خذي معك غالونا لتملإي دموعها

ستهجم على شواطئك وتحمل معها المد...

وتغادرك رطبة إلى الأبد، في اللوحة سترتعش لتبتسم، كما لو أنها تلفظ أنفاسها الأخيرة، تتظاهر بذلك ونحن نموت، تبيح كل الشكوك، تذكرنا بكل ما تخلينا عنه باسم «الذوق».

نازك قالت لبيكاسو تعليقًا على وجه دورا مار:

- انتزعتَ ضلعًا من جسدك وبضربة فرشاة أضفته لتقاسيم وجهها...

بيكاسو عندما يرسم لا يحمل ريشة، فقط، إنما تختبئ مرآة عاكسة تكشف ما بين الضلوع. كانت نازك معجبة بكل فنّ ليس هدفه إصلاح الناس، إنما إتلافهم بالحقيقة.

يمكن الفن أن يكون أشعة أكس، وإلا كيف نفسر البكاء المريب والدمع الفظ في وجه دورا مار... الوجه الملطخ بكل أخطاء الحب المحتملة. نازك تقول لمجيب شان: انظر يرقات ديدان ما بعد الموت تخرج من بورتريهاته.

بيكاسو رسم المرأة وكأنها تُرسم لأول مرة بالتاريخ... أفسح التضاريس لتدفق غيرتها الرهيب كيدها وحزنها وطيبتها.

جَمَعَ كلّ سيول هواجسها وصبّها في شلال مركز مكثف مكتظ وقاسٍ حقيقي... من الألوان.

بعض النساء لديهن موهبة خاصة بالحزن، يحترفنه، يكابدنه، وبيكاسو التقط كل تلك المؤثرات التي تدل على موهبتها العظيمة في الحزن. وقبض على تلك اللحظة التي تحب فيها المرأة: عندما يختل عقلها... في تعقب قلبها.

لأن ثمة ملاكًا رحيمًا يخدم النسيان، فإن هنالك شياطين كثيرة تخدم التذكر...

وتلك الشياطين كانت متأهبة دائمًا لتحريك ذاكرة نازك وفي رفقة كمال غدت تتذكر أبسط ما كان يفعله أو يقوله مجيب شان، دون أن تنتبه أنها بذلك تقع بفخ المقارنة بين رجل الماضي ورجل الحاضر، وهذا بالذات ما يخشاه أي رجل... النساء لا يقمن وزنًا كبيرًا لنساء شغلن ماضي الرجل، بينما الرجل تفترسه خبايا الماضي في تاريخ أي امرأة.

مجيب شان كان يقول: دورا مار مثل كل النساء: يمكنها أن تقضم نفسها خنقًا وتوقًا وكيدًا، فتأكل منديلها سهوًا... يقول لنازك:

- انظري وكأن بحرًا من الدموع سينبجس من عينيها ويشربنا.

نازك كانت تذكر اسم بيكاسو خلال سهراتها في فيلا عمتها شاهي، دون احتراز ودون تخمين أن كل دمشق تناقلت إشاعة أنها جلست موديلًا عاريًا أمام بيكاسو... وعقب زواجها بشهر واحد كعادتها جاءت على ذكر فنانها المفضل، وحالما دخلت باب منزلها نشبت معركة كلامية حامية ومستفزة بين الزوجين... كيف لرجل مثل كمال أن يفهم ما تريده نازك؟! كيف ستشرح له أنها معجبة بموهبة رجل حرر المرأة من تهذيب الأقنعة رسم عواطف غير مصقولة خام: امرأة بدائية، مخالب، وقرون وحراشف وأنياب وذيل؟

كانت نازك تؤوب إلى أيام باريس... تنوس بين التمدد والانكماش وأصبحت ترى نفسها في المرآة أحيانًا كلوحات تتبدل... لا يمكن أن يكون لها ملمح ثابت، أصبحت تشعر بأنها مثل دورا مار: وجه يضمر للآخرين التأنيب. ثمة رسام خفيّ راح يشكل وجهها من جديد... رسام خان المنطق والخطوط المستقيمة والمنحنية والدوائر والمربعات والهندسة والفن وأصبح: بيكاسو.

بعض الرسامين يرسمون ما يعجبهم.

وآخرون يرسمون ما لا يعجبهم.

بيكاسو رسم ما لا نراه بالعين المجردة. وهي أصبحت ترى في مرآتها ما لم تكن تراه سابقًا بالعين المجردة... وعبثًا تحاول أن تبتسم، أن تكون موناليزا للحظات...

مجيب شان أخذ نازك إلى اللوفر وجعلها في مواجهة الموناليزا وقال لها

- انظري، حدقي مليًّا لم تُرسم الموناليزا لتكون نجمة على غلاف مجلة فوغ، تابعي النظر. تدريجيًّا تتحداكِ ابتسامتها

تجري معكِ محادثة عفوية، فجأة تقول لك دون صوت: نمكث قليلًا وسرعان ما نرحل نحن البشر، وهذا مبرر قوي لنبتسم في أسوأ الأحوال. للصمت ألفاظ علينا أن نكتشفها... نظرة آتية من اللانهاية... في نظرتها شيء يشبه الهناء الذي يعقب شبعًا نادرًا، رُسمت لتبدو مثل تعليق أدبي. على تاريخ الابتسامات...

بعد وفاة مجيب شان ارتدت نازك خانم اللون الأسود الذي تكرهه لأول مرة، منذ لقائها الأول مع مجيب شان يوم جعل أيامها ملونة بكل درجات الأحمر ومشتقاته. كانت مسربلة بالأسود حين زارت اللوفر لتقف أمام الموناليزا كشيء أخير تفعله قبل أن تغادر باريس أخيرًا عائدة إلى مسقط رأسها دمشق.

وقتها فقط اقتنعت بتميّز الموناليزا... وقفت أمامها وسمعت اللوحة تهمس لها عن بعد: انتقمي مني، واجهيني بابتسامة خارقة، من حياة أقل حزنًا، ما دمنا قد وهبنا القدرة على اجتراح الابتسامات... طالما نحن أحياء علينا أن نبتسم. أخيرًا اقتنعت نازك أنه: لا أسئلة حول ابتسامتها لأنها جواب، حلّ، علينا أن نبتسم في أصعب الأوقات، ليصبح الهواء رطبًا، ونعرف أن رياحًا ممطرة ستهب. فقط بعد رحيل مجيب شان عرفت معنى قوله عن ابتسامتها:

شكل فني جديد من «يوغا» الابتسام، نظرة نوافذها مفتوحة، مسدلة ستائرها، ابتسامة تنبؤية... بين شفتيها شيء مبهم لا نعرف أن نطلق عليه اسمًا أكثر صدقًا من: «ابتسامة».

أحيانًا نفرط بالعناية بما يجب أن يهلك من الذكريات... مع الوقت نفقد «الابتسامة».

حين تفكر ما الذي دفعها للزواج بكمال لم تعثر على إلا على مبرر واحد: أنه عندما دعاها للمرة الأولى لتناول العشاء شعرت بأنها سندريللا... فالحب «يأتي»، ولا يوجد. لا نبحث عنه لأنه «يأتي»، لأن هذا طبعه، ولهذا الحب رائع. رائع لأنه الشيء الوحيد الذي نقع فيه ونحن سعداء، لأنه حفرة تتربص بخطواتنا دون أن نراها وحين نقع فيها نستيقظ على عاطفة غامضة لا يحظى بها الجميع...

هي التي شرحت يومًا لمجيب شان خبث اللغة العربية: أننا نقع في الحب، أي لا نسقط، لأن الوقوع شيء، والسقوط شيء آخر.

لهذا، على كل الفتيات أن يلبسن الحذاء المناسب للوقوع...

كل الفتيات سندريللات، وكل السندريللات ينتظرن "حذاء"...

في باريس، الحذاء بمثابة واقع موثق وأحيانًا يغدو أهم وأغلى ثمنًا من الأمير المنتظر، والأمير وهم، حلم، غيمة من خيال... كانت مثلها مثل كل الفتيات تلهث وراء هذا الحلم: ساحرة طيبة... شعرها كنديف من زغب ثلجي أبيض، جيوبها محشوة بالأقزام وراءها خدم من اليقطين والقدر في الخدمة كنادل...

9

(مخلوق واحد تفتقده، فإذا الكلّ خراب)

لامارتين

كمال لم يكن يوسعه استبدال صباحات نازك التي تنهض مثل ربيع متململ يهز الأرض، بصباحات امرأة أخرى...

حين يلفها بين ذراعيه ليلًا كانت تحتار في تسمية ذراعيه: أصابع رجل متشهيّة أم أغصان خريف متشابكة مثل شكوك في قلب العاشق.

نازك لم ترَ ما يحدث في دواخل كمال الذي أحبها بجرأة براعم مبكرة تواجه فلول الشتاء...سرعان ما بدأت ترى شيئًا غريبًا بين ملامحه حين ينظر إليها، كان يشبه دورا مار تلك اللوحة التي تكفي مواجهتها لبضع لحظات حتى تركز نظرها على المكان الأكثر تزعزعًا فيك... وجه لا يقول كلمة وفي الوقت نفسه يقول كل شيء... نظرة تنقض كسهم... تحتار بشأنها: هل تحلّق، هل تهبط، هل تحط؟ بعض خطوط دورا مار مقاطع لفظية.

ودائمًا هناك خط مفصلي يرسمه بيكاسو ليكون له فعل الكلام وفي الوقت نفسه تظل دورا مار شجرة حامضة تزهر... هل كانت نازك تتوهم أن وجه كمال أصبح شبيهًا بمعجزة بيكاسو حين بضربة فرشاة، سحب الألم، أخرجه، من وكره، جره من تلافيف أرض المرارة، شدّه إلى الخارج، دفعه نحو الانفلات...

كسر القوقعة، حطم القناع، عرّاها، ورسم المرأة الأكثر عريًا في التاريخ، دون أن تكون عارية بالواقع.

هل كانت نازك تتوهم ذلك، بينما في الحقيقة كانت ترى وجه

لوحتها المفضلة متوحدًا مع وجهها ومنعكسًا على ملامح كمال الذي يكره دورا مار وراسمها؟!

* * *

انتهى المطاف بنازك عند أبواب مدينة... أبواب تتحفز للانقضاض على كل دروب نازك المتاحة.

مدينة أبوابها متحركة، تتجول هنا... وهناك.

تعبر البحار والقفار لتبلغك أين ما كنت...

دائمًا ستظلين مدينة تطفح بالبوابات والأنهر والأضرحة والمقدسات، تفتح لنا بواباتها وتمتحن قدرتنا على العبور...!

مدينة تعرف أن أكثر ما يخشاه البشر: النسيان، أو أن يُمحى ما نفعله أو حتى ما نقترفه، حتى أشرارنا نود تعليقها بتفاخر مبهم وخبيث على حيطان تذكراتنا. مدينة تدرك أن أكثر ما يخيفنا كبشر أن نكون شيئًا مغفلًا، دون هوية، دون اسم، دون مسقط رأس، دون مدفن بعينه...

غالباً أن نازك لم تنس قط ما قالته لإحدى صديقاتها وهي تغادر باريس، مبررة: "لا أريد أن أموت على أرض تجهلني".

ربما أحد لم يسمع ذلك المونولوغ السري بين نازك ودمشق:

عدتُ لزيارة فحسب...؟ أم تراني جئت أتفقد مدينة تشبهني: مشيدة من حجارة مليئة بالصدوع والثقوب والذكرى. وكل تلك المشاعر الدفينة التي لا يؤمن المرء بها حتى النهاية.

أتحداك... هذه المرة نهائيًا، وأعيش تحت سماء أخرى غير سمائكِ

سنتبادل الأدوار:

فأخترع البوابات لتمري أنتِ، لتعبري إن أمكنك أيتها الشاسعة، الواسعة... سأكون القمقم الذي يتربص فيك. «بواباتك السبع، لن تستطيعي فتحها نهائيًا أو إغلاقها... كمرّة أخيرة، فقط يسعني المرور، وعبورها، فيما الدروب تنأى وتُخفي الأسرار.

نازك التي تشرّبت قناعات مجيب شان بشأن الطرق:

إذا اعتبرنا أن كل الطرقات حسنة النية فسيكون ذلك بمثابة يقين باهت... وتافه فالطرقات تفتعل خبث المفترقات، وإبهام الجهات، وتوريات المنعطفات...

مجيب شان كان رجلًا يقدس «الممرات» وهو يردد دائمًا في جلساته:

وحدها «الممرات» تسمح لنا أن نعاف دروبًا تسوقنا كقطيع ولمدة طويلة، فنصبح دون أن ندري، طوع إرادتها، فيغدو من البطولة أن نتحرر من الدروب المديدة... كحزن.

لا للدروب الطويلة...

لماذا نسلك الدروب الطويلة بينما مباحة لنا الممرات، علينا أن نبتكر منعطفاتنا لنضع حدًّا لحمقنا ولسيطرة المصادفات الغريبة على الدروب المفترض أن نسلكها...

إنه زمن الممرات، أينما نتجول نترك وراءنا ممرات كحيوانات الدغل...

نمضي وكأن التوقف دائمًا أمر هامشي جانبي نكمل حيث لا نعترف بالخوف أو الإخفاق لنصبح عابرين ممرات نعبرها... لا سالكي طرقات نطويها.

قد لا نحظى بنهاية مفتوحة لكن، على الأقل نهاية لا تكسر عمود أحلامنا الفقري.

الطرقات الطويلة تبث الخوف وتبيح نفسها للأشرار...

لم نعد نملك من الصبر والتحايل لشن الحروب على الطرقات وأكلها حتى النهاية...

فلننسف الطرق، لننسِّق المزيد من الممرات.

10

(فن الحب؟ هو القدرة على الجمع بين مزاج مصاصي الدماء ورصانة شقائق النعمان)

إميل سيوران

مجيب شان كان مغرمًا بمارلين مونرو، يقول لنازك:

انظري هذا المرأة مُنحت جمالًا إلى حدّ الذهول... قتلت نفسها في لحظة أدركت أن الجمال مثل هرّ ماكر يركض وراء منعطف الهرب، رمت المتبقي من شبابها مقابل شباب دائم في الصور الفوتوغرافية... وحين ينتهي من تأمل وجه مارلين المشع ينقل عينيه صوبها ويقول لها:

- انتبهي، مثيلاتك يضطهدننا بجمالهن

وقتها لم يحزر أن هنالك رجلًا غيره سيعيش ذلك الاضطهاد حتى تأتي لحظة وينهيه بيديه.

ومن الحب ما قتل، ما أشهر هذه العبارة! وكم تشبه التاريخ الذي يعيد نفسه!

كمال بيك، يومها قاد سيارته عائدًا إلى دمشق دون أن يرى الطريق ولا إشارات المرور. إنه: أثر الحب الذي يقع خارج الشرح. كان قد علم لتوه أن نازك ستغادر على متن طائرة فرنسية، ستقلع بعد ساعتين. ويُحكى أن رشدي بيك مغادر في الطائرة ذاتها.

«عندما يتقصى الرجل لمحة منك بين الأخريات جميعهن، عندها سيكون غارقًا في هواكِ» ما قاله يومًا مجيب شان كان منطبقا تمامًا على كمال... ونازك تعرف ذلك... لكنها أمعنت بعنادها.

مرّ ذلك الصباح مثلما مرت صباحاتها السالفة، تلقي التحية

على ظبيها الطعين المعلق في صالون شقتها، تلك اللوحة التي رفض كمال أن تزين جدران منزله الدمشقي قائلًا: إنه لا مكان لهذا المسخ المضرج بالدماء على جدران منزله.

"لا تظني الحب فوضويًا، إنه دقيق في مواعيده إذا لم ندرك هذا فسنقع في أخطاء لا تغتفر". لا شيء يقوله مجيب شان يمكن أن يكون خطأ... فهل كان خطأها أنها كانت متمسكة بفكرة أن الحياة فوضوية بأقدارها وزمانها... وأنها تجاهلت ما يمكن أن يفعله الحب في منقلَبه الجاد الوحشي.

الأحلام كائنات مثلنا تنام وتصحو وتبكي وتفرح، لكنها ليست على الأرض، إنما محلّقة دائمًا. أيضًا، لا يمكنها مواصلة الطيران دون راحة... هل كانت نازك فعلًا تنوي هجران كمال بشكل نهائي؟ أم إنها أرادت فسحة من الراحة والتنزه فحسب في باريس المدينة التي تعشقها كوطن ثانٍ لها؟

قليلون الذين يعرفون ذلك.

كمال الذي اتهمها قائلًا: أنتِ مثل أوروبي يزور الشرق، ليسخر من عادات مجتمع متخلف وسلوكه. كان يقصد ذلك تمامًا.

* * *

محكومون بالذاكرة: سبع سموات منها فوقنا وسبع طبقات من جيولوجية الاحتراق تحتنا... حيث الانطفاء والخيبة والتغير والتحول والحزن. الأرض تخبئ وجدانها، في بطنها... كسرٌ بعيد

من متناول أيدينا... تعيش اندفاعاتها الوجدانية فتقذف لنا البراكين مثل غضب تفجر فجأة من قلوب منزوية، وشيئًا فشيئًا تنساب النار وتبزغ هائجة.

أليس الحزن إرثًا التقطناه من الأرض... كذلك الذاكرة؟!

قطعًا هكذا، ستفكر ابن مدينة تُعد عاصمة لأساطير الشرق ولطبقات متعددة من الذاكرة.

أصبحت تعاني من آلام في المعدة بسبب أباريق القهوة التي تشربها وهو يستعين بها كل صباح مواجهًا تشوشها وقد غدت امرأة تعرف أن الماضي، كائنًا غامضًا وضروريًّا، يقذف أطنانًا من الظنون بشأن المستقبل.

امرأة كلما رأت وجهها في المرآة همست لنفسها: لا نملك وجهًا واحدًا أبدًا... لم تعد تضنيها مفردات بعينها، كالوفاء! كثيرًا ما دافعت عن الخيانات حتى لا تضبط نفسها كمتسللة إلى صفوف الأوفياء. وغالبًا ما روّجت للخيانة! بقولها: بارتكاب الخيانات الكبيرة، فقط، يمكننا أن نقمع كل من غدروا بنا.

والحزن؟ لم يعد يخيفها، إنما أصبح: إشراقًا من نوع آخر... لما هو جامد وصامت فيها.

* * *

مجيب كان يرى شيئًا خاصًّا في مشية نازك وهي تتهادى بين أروقة دور الأزياء، ربما لأنه كان عاشقًا بما يكفي ليرى بنازك ما

لا يـراه الآخـرون. لكنـه بالتأكيد كان رجـلًا يحكم على المرأة من مشيتها... ذات مرة قال لنازك:

- كلّ ماضيكِ معدٌّ... حتى يأتي وقت تمشين فيه بهذه الطريقة بالذات.

- كيف؟!

- حيـن يبـزغ ذلـك الـدرب الدفين... الـذي لا نعثر عليه إلا بعد أن نقطع دروبًا كثيرة، ذلك الدرب وتعثرين عليه بنفسك دون مسـاعدة أحـد، فـلا يجفلك روع المسـافات، فالطرقـات لم توجد لتطاع، إنما وجدت لنحرف مسـاراتها، لنبدل اتجاهاتها، لستِ من أولئك الذين ولدوا ليكونوا قاطني البيوت. أو لتكوني من سالكي الطرق المهذبة والمسالمة.

بعـد سـنوات راحـت تـردد كلمات مجيب شـان الأثيـرة إلى نفسها، لتقويها وهي تقطع شوارع دمشق بخطى حائرة:

تبدين كمن يمشي على الحياد.

المشي صيغة للانعتاق من أشياء كثيرة لزجة كالماضي... أيضًا المشي شكل من أشكال الانبعاث من رماد التجارب السالفة.

لا تشـبهين أحدًا في شـوارع تضج بمشـية بمن يلوذ بالفرار، بعض البشـر مشـيتهم مجرد تقوقع. مشـيتك لا تشبه مشية المراهق الفجـة الفتيـة، أو رزانـة منتصـف العمـر أو وقار الكهولة، مشـيتك تشبهك أنت وحدك...

* * *

نازك لم تبرر قط لأحد سبب إقلاعها عن كتابة الأدب، إلى أن حضر مجيب شان في حياتها. هجرت الكتابة قبل أن تبدأ، وقتها قالت له: لن أنافس القدر، الكتابة من شأنه وحده، ألا نأتي إلى هذه الدنيا وكل شيء مكتوب على جبيننا... لن أغافل جبيني، وأكتب بيدي ما هو تافه جدًّا مقارنة بما يمكن أن يكون قد كُتب على جبيني...

نازك كانت قدرية بامتياز، كيف لا، وهي التي تؤمن بشكل مطلق بأن القدر يرسم تضاريس تجهل الخرائط مصدرها؟

ما لم يعرفه أحد أنها كانت مولعة بكتابة المخطوطات... مخطوطات روايات لم تكتمل قط، مخطوطات بهشاشة هيكل عظمي، هيكل ينفرط إذا ما لمسه أحد. ويظلّ ذلك المخطوط في الدرج: أحد انتصاراتها المحتملة في حال أكملت كتابتها...

كانت تثمّن ذاكرتها، مثل تلك الأحافير الغريبة التي يعثر عليها العلماء في بحار جفت قبل ملايين السنين... هل يمكننا أن نتحرر من الذاكرة؟ فالذاكرة لا تسلم نفسها بسهولة، تراها واقفة هناك في البراري، مثل وحش في عمق أرض الامتناع، وفي لحظة عزيزة حميمة تغدو الكلمات مثل صديق يأتي في أوانه. فنكتب بلحظة تبيح لنا الذاكرة كل تضاريسها العالية والمتجهمة... نازك خافت، فلم تكتب.

يومها نظرت في المرآة للمرة الأخيرة ولفت انتباهها أننا أحيانًا ننظر إلى مرآتنا فنرى ما هو أكثر من وجه... ونفارق مرآتنا... ولكن، ثمة كائن يظل هناك يتحدّانا... ويغدو المكتوب على الجبين

مقروءًا، لكننا نتجاهل ما قد نتهجاه في لحظة حدس نادرة...

* * *

الصباحات لا يمكن أن تشبه بعضها كما قد يتوهم الكثيرون، وصباح نازك الأخير يثبت ذلك.

آخر ما رأته نازك تجلى بصرامة وجهه الصخرية الصامته ودون أن تجرحها توسلات عينيه قالت: لا. وانطلقت الرصاصة.

الجميع اتفق على أن ما حدث كان كالآتي:

كمال علم أن نازك متوجهة إلى الخارج، وبدا واضحًا أنها تهجره، أو تغادره نهائيًّا، قصد بائع الورد وأخذ باقة كبيرة من الورد الأحمر، واتجه صوب شقتها الكائنة في حي الصالحية. حين فتحت الباب كان يحمل شيئين الورد الأحمر والمسدس، لكن المسدس لم يكن مشهرًا، فقد قرر أن يعطيها فرصة أخيرة وذلك بمحاولة استرضائها بالورد الأحمر، لكن المسدس كان جاهزًا في حال رفضت عرضه. ورفضت نازك.

أي صمت خالص تخلفينه وراءك يا نازيك هانوم؟
انتقم لكرامته من صمتها الذي يصرخ به...

انتقم من ابتسامتها الزاخرة بالغرور... كيف لا؟! ألا تبتسم هكذا سليلة الآلهة المتكبرين؟!

انتقم مقدمًا من رجل آخر كان سيحظى بابتساماتها المتناثرة على صباحات الفل...

هو نفسه لم يخطر له أن ذلك اليوم سيكون نهارًا مختلفًا. فأحيانًا نجترح بداياتنا بحذر لعلّنا نعثر على نهايات تصمد أمام البكاء.

كمال الذي أرّقته شتى الأوهام التي تحرك عتمات الظنون، تيقّن من شكوكه حالما علم أنها ستغادر دمشق.

فجأة وقف على مفترق طرق اعتادت صرخات الحيرة منذ الأزل... حيث طرق تجهد في أن تغويك.

سلك "ممرًّا"، نازك لم تحسب له حسابًا. هي المغرمة العتيقة بالممرات أكثر من الطرق، هي التي زينت جدار غرفتها المستأجرة في باريس بصورة فوتوغرافية التقطت لشبان فرقة "البيتلز" أي "الخنافس" وهم يبدون مصطفين وراء بعضهم بعضًا يقطعون ممر مشاة في شارع "آبي آرت" بلندن. الصورة اجتاحت العالم كهجمة غير متوقعة، علقتها دائمًا في غالبية الغرف التي استأجرتها... حتى لا تغويها الطرق الطويلة.. فقط نسيتها عندما انتقلت للعيش بقصر مجيب شان.

في ذلك الصباح الأخير، لعلها فطنت متأخرة إلى أنها مع كمال سلكت ذلك الطراز القاتل من الطرق: عندما لا نعرف أين نضلّ وأين نصل! حيث يحثّ كل شيء على الركض المجاني، فقط.

هي التي كانت تروّج لفتنة "الممرات"، لتنتقم من كل الطرقات التي سلكتها وتلقت حقيقة نهايتها كلطمة.

هـي التـي عـادت إلـى دمشـق، لأن الانخـداع بالمجهـول لم يعد مغريًا لها، أن نسـلك طرقًا تبوح بضعفنا وتستر قوتها أمر لم يعـد مقبـولًا، لهـا، كانت تريد أن تسـلك دربًـا تروغ منه في الوقت المناسب.

وحده العاشـق قد يتمسـك بصدفة ما... كما لو أنها وعد... هكـذا، فكّـر كمـال بيـك عندما قابل نـازك العابثة عنـد النبعة على طريق بلودان. هو الذي سـمع باسـمها كثيرًا، ورآها مرات ومرات دون أن تراه. وقتها لم يستمع لأحد قال له إنه لا يمكن امرأة من طرازها أن تقدم لرجل من طرازه إلا سعادة موقتة عائمة على بحر من الظنون.

إنه خبث الأقدار عندما يطيب لها السكوت.

يـا تـرى هل هي نفسـها ربـة القدر... الحاسـمة التي تصمت الآن في مفترق الطرق؟!

لأيـام عـدة قبيـل أن تقرر المغادرة كانت نـازك تتوه بتفكيرها وهي تقطع تلك المسـافة الضبابية بين احتمالين: إما الهروب وإما العودة.

كمال بفضل قلبه الكثير التخمين كان في الفترة الأخيرة ذلك الرجل المشـغول بشـكوكه تجاه امرأة كانت تحمل شـعارًا عريضًا لحياتهـا: وجِـدَ الماضـي لنمـلأه... ما معنى أن نتـرك الماضي يمر دون أن يترك أيّ أثر؟ أن تفعل ذلك امرأة فهذا الجبن بعينه، وبمثابة هزيمة كبرى أمام الرجل الذي يتباهى بنسـاء ماضيه في حين على

المرأة إنكاره واستجداء الغفران. هي التي لم تندم على شيء وتعتبر أن الندم محاولة بائسة لتنقيح الماضي، وهذا ما لن تقدم على اقترافه.

وهي التي صرّحت أكثر من مرة أمام كمال، أن التوقف عن المغامرة شكل من أشكال التنحي المبكر من الحياة.

لم يعرف أحد ما إذا كانت فعلًا نازك لا تريد إنجاب الأطفال، أم إنها في الحقيقة غير قادرة على ذلك، كل من حولها حفظ عبارتها الشهيرة التي لا بد اقتنصتها من أحد المشاهير وهي تقول: «الأطفال السعداء هم الذين لم يولدوا بعد».

ذات مرة أسرّت لعمتها بقولها: عواطفي بالكاد تكفيني لنفسي. لكن كل ذلك تغير عندما أحبت كمال، ومع الشهور الأولى من زواجها كانت تجول على أطباء دمشق في محاولة جادة للإنجاب.

عندما لا أكون عاشقة تبدو أقرب الأشياء إلي، بعيدة... قالت ذلك للعمة شاهي ذات مرة في قهوة صغيرة على حاشية طريق بلودان.

كان أهم ما في مجيب شان المتألق بذكائه الحاد والذي لم يكن يومًا عنيدًا في النقاش، أن رؤياه عن مستقبل من حوله دائمًا صادقة.

وحدها وسيلة بوسيس، فاجأته نهايتها عندما وضع أحد الأثرياء المغاربة على رأسها كأس ويسكي ووجه إليها المسدس فأخطأ، وانفجرت جمجمتها.

ربة القدر لم تبح لمجيب شـان أو لنازك، أنها سـتنتهي على عتبة منزلها مضرجة بدمها، لم تقل لها: هنا تنتهي حياتك، دروبك، تنتهي حكايتك... إلى ما ليس يمكن سرْدُه...

لم تعلمك أنه: فجأة سينهض ظبي فريدا كالو الطعين، ويقطع فخـاخ الغابـات، وتخطئـه سـهام الصيادين وتمنحه الحياة شـطرها البارد: الموت.

انتهـى كل مـا يفـرح وكل مـا يحـزن، وكل ما يجرح، وكل ما يداوي.

إجمالًا انتهى ومضى كل ما كان هو الحياة...

حتى بموتك تفرضين على من حولك السرَّ نفسه، سرّك أنتِ.

بعض البشر يموتون لأنهم ينبغي أن يعودوا إلى كوكبة النجوم التي جاؤوا منها... كمال أطلق رصاصته لتظل نازك مدفونة بتراب دمشق، بينما غادر هو ليتزعم جماعةً متطرفة في الخارج.

بينما رفرفرت البجعة عائدة من السـفر والأحزان، أدار الزمن عجلاته اللامرئية.

اهجعي أيتها البجعة، لا أحد غيرك سـيرقد في ماء أحلامك، أغمضي أحلامك

رفرفـي حيـث لـن يكـون غير الهـواء النقي، هنـاك، في العلو حيث تتنفس الأحلام... كل شيء سيتلاشى ما عدا عينيك.

مثلمـا يمكـن الوحشـية أن تغير الأقدار يمكـن أن تفعل ذلك النعومة أيضًا...

هنيئًا للريح التي تحدد مصائر السفن...

في كل ربيع... الآمال تواصل إزهارها من الدم... من قال إن الأزهار أشياء جميلة وبريئة؟!

من أين بزغت إذًا، شقائق النعمان المضرجة بدم ربّ؟ الرب الأجمل في تاريخ سورية، أدونيس، قتله خنزير فيما كان يطارد ظبيًا ليجلبه لأنثاه المفضلة...

حلّقي، مرّري عذوبتك...

الملكات وحدهن يمكن أن يتحولن حمائم... ألم تحكِ لمقاهي باريس أن ثمة ملكة دمشقية اسمها سميراميس عندما ماتت تحولت حمامة؟! دمشق المدينة التي تمتلك سماء مترعة بحمائم سميراميس... الملكة الحمامة... المحلقة في سمائها... إذا حدث وزرتم دمشق التقطوا الصور بين حمائمها... فهن ملكات مجنحات.

رفرفي لكي تتمكني من بلوغ كل ما قادك إليه غرورك، وكبرياؤك، احملي كل برقياتك المغرّدة إلى العوالم الأخرى التي نهابها ونتكهن بها حسب هوانا وخوفنا...

سيتحول الصبح خيوطًا من الضوء لا حصر لها لتشرقي...

حلقي بجناحين يضربان في الهواء ويحرثان في التراب...

بلّغي دمشق:

لن أزورك صراحة، سأفعل متنكرة بهيئة غيمة عالقة عفوًا في الريح...

وعن بعد أبعثر ملامح مدينة تتظاهر بالفوضى، فيما تنظم جهاتها الأربع بسبع بوابات.

تبعتني أبوابك، أفرّ، أتنكر، أغادر، أتمرد، أكره، لا فائدة...

فجأة تمدين لي السلالم، تتذكرين أين خبأت المفاتيح القديمة...

وفي لحظة مكر تكشفين عن أفخاخك...

لتربكي خطاي حتى تحرميني من الخيارات... مدينة حسمت كل النهايات... مدينة تضنُّ عليّ حتى بالحيرة، حيرة مفترق الطرق... الحيرة ذاتها التي دفعت إلهًا اسمه أدونيس ليسلك دربًا ظن أنها تؤدي إلى غزالة...

كل يوم سترسل عشتار ذات الأثداء الكثيرة أدونيس إلى الغابة، لتهرب الغزلان، ويصرعه خنزير القدر البري...

كل يوم سيموت ربّ لتنبت زهرة شقائق النعمان... وتقلق طمأنينة الطبيعة...

من يمنع البجعات من التحليق عاليًا وبعيدًا؟ لا أحد... لا أحد...

حلقي، غافلي الأعين الهاجعة، ستنهض فريدا كالو مع ريشتها وتقول لظبيها المدمى:

امضِ!

ستكون مسحورًا...

2013-1-23

نازك خانم

لابد أن هنالك.. بين الدمشقيين من يتذكر أو سمع بنازك خانم أو كما سماها الفرنسيون، «نازيك هانوم» الجميلة التي جلست عارية أمام بيكاسو في مرسمه في شارع دوغراند أوغسطين بباريس، وكانت ضمن العارضات العشر الأوائل اللذين ألبسهن ايف سان لوران بدلة السموكينغ لأول مرة بالتاريخ.. وأول امرأة ارتدت البكيني في مسابح دمشق.. وقادت سيارتها بلباس رياضة التنس... وكانت لها هذه الحكاية..

لينا هويان الحسن

• كاتبة من سورية

مكتبة نوميديا

منشورات الاختلاف
Editions El-Ikhtilef
editions.elikhtilef@gmail.com

منشورات ضفاف
DIFAF PUBLISHING
editions.difaf@gmail.com

جميع كتبنا متوفرة في موقع نيل وفرات.كوم
www.neelwafurat.com - www.nwf.com